مشكلات الطبقة الوسطى المصرية في
قصص نجيب محفوظ من القاهرة الجديدة حتى الثلاثية

اعداد
عاطف فضول

رسالة مقدمة الى الدائرة العربية
في الجامعة الاميركية ببيروت
للحصول على درجة الماجستير في الآداب

حزيران ١٩٧٠

~~March 8, 1969~~

NOTICE TO GRADUATE STUDENTS

The Board of Graduate Studies in its meeting on November 1, 1968, decided that all graduate students must include the following " Thesis Release Form " to appear on a seperate page of each thesis:

" THESIS RELEASE FORM "
American University of Beirut

I, Atif Faddul :

[X] authorise the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.

[ ] do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals.

Atif Faddul
Signature

June 1, 1970
Date

Emile Rubeiz
Assistant Registrar

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

مشكلات الطبقة الوسطى المصرية في قصص نجيب محفوظ من القاهرة الجديدة حتى الثلاثية .

The Problems of the Egyptian Middle Class as depicted in the works of Nagib Mahfouz, from al-Qahira al-Jadida to the Trilogy

By

Atif Faddul
(Name of Student)

Approved:

Prof. M.Y.Najm	[signature] Advisor
Prof. I. Abbas	Ihsan Abbas Member of Committee
Prof. H. Barakat	Halim Barakat Member of Committee
Prof. M.A.Ghul	M. A. Ghul Member of Committee
Prof. N. Naimy	[signature]

Date of Thesis Presentation: **19/5/1970**

مقدمــــة

* تدخل هذه الدراسة ضمن محاولات تفسير الادب تفسيرا اجتماعيا، وهي المحاولات التي تطورت مع تطور علم الاجتماع، وصار لها اتباع ومدارس، وأثبتت بالتالي وجودها الى جانب سائر المحاولات النقدية التي تنظر الى الادب من زوايا مختلفة كالزاوية النفسية، والزاوية التاريخية، والزاوية الفنية البحت[1]. وتؤكد النظرية الاجتماعية الخاصة بنشأة القصة ارتباط هذه النشأة بنمو الطبقة الوسطى وازدهارها، كما تؤكد التصاق القصة بواقع الحياة[2]. لذلك فان محاولة ابراز علاقة قصص محفوظ بالطبقة الوسطى المصرية، ومعالجتها لمشكلاتها لها ما يبررها من الناحية النظرية على الأقل. وهذه هي النقطة الاولى التي ترتكز عليها هذه الدراسة.

---

١. يقول هامفري هاوس (Humphry House) في كتابه
The Dickens World (2nd. Ed.; London: Oxford University Press, 1965) P. 15.
ان النقد الادبي وبشكل خاص ما يسمى بالتاريخ الادبي صار اجتماعيا بصورة اكبر، وان من الحقائق البدهية التي لم يشك بها ناقد ابدا ان الكاتب العظيم هو ثمرة القوى الاجتماعية في زمنه، وانه يعكس هذه القوى ويعدلها في اعماله.

٢. راجع
Diana Spearman, The Novel and Society (London: Routledge and Kegan Paul, 1966).
حيث تورد المؤلفة سائر النظريات الخاصة بنشأة القصة، كما تورد التعريفات المختلفة للقصة. وكلها تؤكد ارتباط القصة بالحياة الواقعية وبالطبقة الوسطى. ومع ان الكاتبة تدعو الى تعديل النظرية الاجتماعية الخاصة بنشأة القصة، فان هذا التعديل ليس الا تعديلا جزئيا يأخذ باعتباره العوامل التاريخية المتمثلة في أثر الأدب القصصي السابق للقرن الثامن عشر في القصة الحديثة من ناحيتي الشكل والمضمون، ولا يلغي النظرية ككل.
==

أما النقطة الثانية فتنطلق من تأكيد محفوظ في المقابلات التي أجريت معه على ان الكاتب لا يمكن أن يكتب الا عن تلك المجموعة من المجتمع التي ينتسب اليها "فانفعالاته انعكاس لانفعالاتهم و تجاربه صورة من تجاربهم و هم منه و هو منهم و لذلك يكتب عنهم!"[١] والمجموعة التي ينتسب محفوظ اليها هي الطبقة الوسطى الصغيرة. وتأكيده كذلك أن الشكل الواقعي نبع تاريخيا من رغبة محددة في دراسة المجتمع و الأنسان، وأن سلسلة كتبه قبل الثورة كانت محاولات لتحليل المجتمع القديم و نقده[٢]. وهكذا يؤكد محفوظ بشكل حاسم أن قصصه الواقعية تحلل مجتمع ما قبل الثورة و بشكل أدق مشكلات الطبقة الوسطى المصرية في ذلك المجتمع.

== كذلك يؤكد هاري لافين (Harry Levin) في كتابه The Gates of Horn. A study of Five French Realists (New York: Oxford University Press, 1963), P. 4 and P. 32.

ان القصص الواقعي كان و لا يزال تعبيرا مميزا عن المجتمع البرجوازي، و ان هذا الأمر يمكن قبوله الآن كحقيقة مقررة، و ان تحليل القصص يجب ان يعتمد على الاسناد المستمر الى العصر البرجوازي، و الى التركيب الاجتماعي لمجتمع الكاتب، و ان الملحمة و الرومانس و القصة تمثل ثلاث طبقات اجتماعية و اساليب حياة متتالية: العسكرية، و البلاطية، و التجارية.

و يؤكد حليم بركات في مقالة بعنوان "في علاقة القصة بالمجتمع"، التي نشرت في مجلة آفاق خريف ١٩٥٨، ص ٥٢—٥٨ ان القصة اكثر انواع الادب التصاقا بواقع الحياة. و يعرض النظريات الخاصة بارتباط القصة بالمجتمع و يقسمها الى نوعين: النظرية الانعكاسية و النظرية التأثيرية.

١. عبد التواب عبد الحي، "عصير حياتي"، الاذاعة، ٢١ كانون اول، ١٩٥٧، ص ٢٠. كذلك صرح محفوظ لكاتب هذه الدراسة بأنه يوافق على أن قصصه الواقعية تعالج مشكلات الطبقة الوسطى المصرية — مقابلة اجريت في القاهرة في ٧ نيسان ١٩٦٩.

٢. كمال الجويلي، "الادب و الفلسفة"، المساء، ٢١ تشرين اول، ١٩٦٢، ص ٨.

وتقوم طريقة البحث المتبعة في هذه الدراسة على استنتاج الحقائق من اشارات الكاتب، ومن تصرفات شخصيات قصصه وأقوالهم، ومقارنة الأقوال والتصرفات، وتصنيفها، واستخراج المبادئ العامة منها. وتسهيلا للبحث لجأت الى تقسيم المشكلات الى انواع ثلاثة: اجتماعية، واقتصادية، وسياسية مع اقتناعي بالارتباط الشديد بين هذه الانواع من المشكلات. لذلك حرصت على تأكيد ذلك الارتباط والاشارة اليه خلال البحث، وبدأت بالكلام على المشكلات الاجتماعية لاعتقادي أنها أهم هذه المشكلات، ثم أتبعتها بالمشكلات الاقتصادية وأخيرا السياسية، حارصا طوال الوقت على أن أترك كلمات محفوظ نفسها تعبر عما أريد اثباته، وتاركا لنفسي مهمة الترتيب والتحليل والاستنتاج. كما قدمت للحديث عن المشكلات بفصل بينت فيه تركيب الطبقة الوسطى المصرية كما يتجلى في قصص محفوظ الواقعية، بعد أن عرضت تطور هذه الطبقة منذ نشأتها وحتى الاربعينات من هذا القرن، والآراء المختلفة في حجمها وتركيبها بالشكل الذي تسمح به الدراسات القليلة في هذا الموضوع، وبتمهيد بينت فيه علاقة محفوظ بالطبقة الوسطى وبقضايا عصره بنيته على ما عرفته عن الكاتب من المقابلات التي أجريت معه، ومن كتاباته، وتاريخ مصر في الفترة التي كتب فيها قصصه موضوع هذه الدراسة.

وكانت المشكلة الأولى التي واجهتني وأنا أحضر لهذه الدراسة هي اعتماد تعريف محدد للطبقة الوسطى يعين الفئات التي تشملها والخصائص التي تتميز بها عن الطبقات الاجتماعية الاخرى، خاصة وأن الدراسات حول الطبقة الوسطى المصرية نادرة جدا، كما أن تعريفات الباحثين الغربيين للطبقة الوسطى شديدة الاختلاف، ولا تنطبق بصورة عامة على مجتمعات البلدان النامية. وقد اعتمدت في الفصل الاول الخاص بتركيب الطبقة الوسطى المصرية في قصص محفوظ تعريف مورو بيرغر (Morroe Berger) الذي يشير فيه الى أن الطبقة الوسطى تشمل صغار رجال الصناعة والتجارة، وأصحاب المهن الحرة، وموظفي الحكومة. كما استطعت أن أستنتج من التعريفات المختلفة التي اطلعت عليها أن أهم ما تتميز به الطبقة الوسطى هو وضعها الوسطي القلق على السلم الاجتماعي والذي يجعل أفرادها يسمون، من

جهة ،وراء بلوغ درجة أعلى على ذلك السلم ،و يخشون ،من جهة أخرى ،السقوط الى درجة أدنى . وكان ذلك الاستنتاج متفقا مع ما استخلصته من قصص محفوظ ذاتها وهكذا كان هو الخط الأساسي الذي تركز عليه البحث في الفصول الثلاثة الخاصة بالمشكلات.

أما المشكلة الثانية التي واجهتني فكانت ضآلة المادة الخلفية الضرورية لهذه الدراسة بسبب ندرة الدراسات الاجتماعية حول المجتمع المصري بصورة عامة والطبقة الوسطى المصرية بشكل خاص. فحاولت ما أمكنني أن أستجمع تلك المادة من المباحث التاريخية والسياسية والاقتصادية التي كتبت عن مصر ،مثل كتاب عبد العظيم رمضان تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٣٦ وهو دراسة تاريخية علمية تحليلية أغنتني عن مراجعة كتب التاريخ المصري الحديث الوصفية ، وتضمنت تحليلا لحقائق الوضع السياسي في مصر في تلك الفترة ،كما أبرزت دور البرجوازية المصرية في الأحداث السياسية ،وهما أمران لازمان لهذا البحث. ومثل كتاب راشد البراوي حقيقة الانقلاب الاخير في مصر ،وأبحاث الدكتور محمد أنيس المتعلقة بالتاريخ المصري الحديث التي نشرت في مجلة الكاتب عام ١٩٦٥ . وقد ساعدني كتاب البراوي وأبحاث أنيس في تحديد تطور الطبقة الوسطى المصرية. ومثل كتابي شارل عيساوي Egypt at Mid-Century و Egypt: An Economic and Social Analysis, اللذين وان ركزا على الناحية الاقتصادية ،فقد تضمنا بالاضافة الى ذلك تحليلا للأوضاع السياسية والاجتماعية في مصر الحديثة. وكتاب ندف صفران (Nadav Safran) Egypt in Search of Political Community الذي أفادني في نواح مشابهة. كذلك افدت من دراسة بيرغر Bureaucracy and Society in Modern Egypt ومن بحثه حول الطبقة الوسطى في العالم العربي الذي نشر في كتاب بعنوان The Middle East in Transition نشره وولتر لاكير (Walter Laqueur)، وبحث حسن الساعاتي حول الطبقات الوسطى في مصر الذي نشر في مجلة مصر المعاصرة (L'Egypt Contemporaine) في ابريل ١٩٥٧ باللغة الانكليزية. وبحثا بيرغر والساعاتي ربما

كانا البحثين الوحيدين اللذين يتطرقان لتركيب الطبقة الوسطى المصرية وحجمها .
ويشير اليهما مانفرد هالبرن (Manfred Halpern) في الفصل الخاص بالطبقة
الوسطى من كتابه The Politics of Social Change in the Middle East and
North Africa ، الذي اتى فيه بنظرية جديدة خاصة بالطبقة الوسطى في البلدان
النامية لخصتها في الفصل الاول .

وأفدت بصورة أقل من كتب أخرى مثل الكتاب الذي نشره هولت (P.M. Holt)
وعنوانه Political and Social Change in Modern Egypt وفيه بحوث عن التغيير
الاجتماعي في مصر الحديثة وعن الاحزاب السياسية فيها ، وكتاب كريستينا هاريس
(Christina Phelps Harris) Nationalism and Revolution in Egypt حول
حركة الاخوان المسلمين . وكتاب وولترلاكير Communism and Nationalism in the
Middle East ،وكتاب جمال محمد أحمد The Intellectual Origins of Egyptian
Nationalism وفيه اشارات الى الأوضاع الفكرية في مصر وتأثيرها بالأوضاع السياسية
في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن . وغيرها من الكتب الغربية المتعلقة
بمصر وبالشرق الأوسط .

وحاولت أيضا أن أعوض هذا النقص في الدراسات الاجتماعية الخاصة بالمجتمع
المصري وبالطبقة الوسطى المصرية بقراءات متعلقة بالطبقة الوسطى بشكل عام او في
بلدان معينة . مثل كتاب فرانكلين بالم (Franklin C. Palm) The Middle Classes-
Then and Now وفيه دراسات حول أدب الطبقة الوسطى في الغرب وأعلام هذا
الأدب: بلزاك (Balzac) وفلوبير (Flaubert) ودكنز (Dickens) وغيرهم
وكتاب هنري غريسون (Henry Grayson) The Crisis of the Middle Class
الذي يقدم نظرية خاصة بالطبقة الوسطى ، وكتاب ألينور باربر (Elinor Barber)
The Bourgeoisie in 18th C. France ، وكتاب فالنتين بل (Valentine T.
Bill) The Forgotten Class حول الطبقة الوسطى الروسية . وكتاب غريتون
(R. H. Gretton) The English Middle Class ،فضلا عن قراءات
سوسيولوجية متعلقة بنظام الطبقات ...

في المجتمع و بالتفسير السوسيولوجي للأدب، و أبحاث نقدية حول كتاب قصة معينين عالجوا قضايا اجتماعية خاصة دكنز و بلزاك و ستندال (Stendhal) .

و لم ينشر عن أدب محفوظ سوى كتابين هما : المنتمي لغالي شكري ، و قضية الشكل الفني عند نجيب محفوظ لنبيل راغب. و لم يفدني كتاب راغب لانه اقتصر على الناحية الفنية. اما كتاب شكري ففيه محاولة لتحليل مضامين قصص محفوظ الواقعية وعلاقتها بالطبقة الوسطى المصرية الصغيرة. و لكن قارئ هذا الكتاب يشعر أن كاتبه يحاول أن يفرض على قصص محفوظ مضامين مسبقة من عنده [1]. وأن يستخدم كلمات وتعابير كبيرة (ملحمة السقوط و الانهيار ، مأساة الخبز و الجنس و المعرفة ، الضائع ، المضطهد ، الطريق القصير ، الطريق المسدود ، جيل المأساة الخ) قد تخدع القارئ العادي و تبهره ، و لكنها ، في الحقيقة ، تفتقر الى الدقة في اكثر الاحيان بحيث يصير الاعتماد على هذا الكتاب محفوفا بخطر الانزلاق في التعميمات ، برغم أنه لا يخلو من أحكام جزئية صائبة .

و أمكنني الاطلاع على رسالة M. A. قدمت لدائرة الدراسات الشرقية في الجامعة الاميركية في القاهرة في شباط ١٩٦٩ بعنوان The Novels of Najib Mahfuz Subsequent to the Triology و هي تعالج قصص محفوظ التي كتبها بعد الثلاثية ، و تقارن بين اتجاه محفوظ فيها و اتجاهه في قصصه الواقعية من ناحيتي الشكل و المضمون . و ترى كاتبتها ناريمان خالص نائلي الوراقي أن الاتجاه الاقوى * في كتابات محفوظ بعد الثلاثية هو تطوره نحو صيرورته كاتب أفكار ، و هذا يتماشى مع الاتجاهات العالمية الحديثة في كتابة القصة . و تعطي الكاتبة تفسيراتها لكل من قصص الفترة الاخيرة ، و ترى ان ميرامار و هي آخر هذه القصص تختلف عن القصص

---

١ . من الغريب حقا ان شكري نفسه يحذر من فرض مضامين مسبقة على قصص محفوظ " فلا ينبغي ان (نفرض) على المؤلف مضمونا مسبقا ، و نستقرئ النتائج بعد ذلك من وحي خيالنا لمجرد افتراض لجأنا اليه حين قلبنا الاطار الى محتوى " غالي شكري ، أزمة الجنس في القصة العربية (بيروت: دار الآداب ، ١٩٦٢) ، ص ١١١ ، ثم يقع في شرك ما يحذر منه .

الأخرى في هذه الفترة (اولاد حارتنا ،اللص والكلاب، السمان والخريف، الطريق ، الشحاذ ، ثرثرة فوق النيل) في انها عودة الى الواقعية وتخل عن قصة الفكرة ، و يقارن الكاتب فيها وضع مصر الحالي بوضعها قبل الثورة.

أما المقالات التي نشرت حول أدب محفوظ في الصحف والمجلات فمعظمها قليل الفائدة. ولا يستثنى من هذا الحكم سوى عدد قليل منها مثل سلسلة مقالات الدكتورة فاطمة موسى التي نشرتها في مجلة الكاتب المصرية عام ١٩٦٨ تحت عنوان " نجيب محفوظ وتطور فن الرواية في مصر"، و مثل المقابلات التي أجريت مع محفوظ ولعل أشملها مقابلة فؤاد دوارة التي نشرت في الكاتب في يناير ١٩٦٣. كذلك فان العدد الخاص بنجيب محفوظ من مجلة الهلال المصرية الذي صدر في شهر شباط الماضي وما تضمنه من بحوث وتعليقات ينير جوانب من حياة محفوظ وأدبه .

واخيرا فانني آمل ان تملأ دراستي هذه جزءا من الفراغ الناشيء عن قلة البحوث التي تنظر الى الادب من زاوية اجتماعية في العالم العربي ، وان تلفت النظر الى الدور الذي يلعبه الادب في عكس الحقائق السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتفسيرها في بلد ما أو الخاصة بطبقة اجتماعية معينة ، والايحاء بالطريق الذي يجب اتباعه لتجاوز الأوضاع السيئة بعد انتقاد هذه الاوضاع وفضحها .

مـــــدخـــــل

نجيب محفوظ وعلاقته بالطبقة الوسطى وبقضايا عصره

* ولد نجيب محفوظ في شهر كانون الاول من سنة ١٩١٢ بالجمالية بجوار الحسين (حي الثلاثية) لأسرة ربها تاجر من الطبقة الوسطى، وسائر أفرادها من موظفي الحكومة، أو صغار الملاك والمزارعين. ولما كان في السادسة من عمره انتقلت الأسرة الى العباسية حيث نشأ نجيب وعاش فترة طويلة من حياته، ومن هنا كانت القاهرة بالذات واحياؤها القديمة بنوع خاص، مسرح قصصه لأن هذه الاحياء هي التي عرفها محفوظ جيدا، وعايش سكانها من الطبقة الوسطى الصغيرة والطبقة الشعبية الفقيرة. ومر نجيب بالمراحل الدراسية المعروفة (المرحلة الابتدائية، فالمرحلة الاعدادية، ثم الثانوية، واخيرا المرحلة الجامعية)، وتخرج من الجامعة في عام ١٩٣٤ بليسانس في الفلسفة. وبعد تخرجه عمل في ادارة الجامعة بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٨، ثم انتقل الى العمل في وزارة الأوقاف، وكان لا يزال فيها عندما انهى كتابة الثلاثية في ابريل ١٩٥٢. ويلاحظ أن نجيب كتب جميع قصصه الواقعية موضوع دراستنا أثناء عمله في وزارة الأوقاف وفقا للترتيب التالي[1]:

القاهرة الجديدة :	من سبتمبر	١٩٣٨	الى ابريل	١٩٣٩
خان الخليلي :	" "	١٩٤٠	" "	١٩٤١
زقاق المدق :	" "	١٩٤١	" "	١٩٤٢
بداية ونهاية :	" "	١٩٤٢	" "	١٩٤٣
السراب :	" "	١٩٤٣	" "	١٩٤٤

الثلاثية : كتبت بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٥٢ وتخللت كتابتها فترات انقطاع متتابعة بسبب عمله في التفتيش بوزارة الأوقاف. أما تواريخ نشر هذه القصص للمرة الاولى فهي كما يلي :

---

١. غالي شكري، المنتمي — دراسة في ادب نجيب محفوظ (القاهرة: مكتبة الزناري، ١٩٦٤)، ص ٣٤٧. وقد اعتمد شكري على محفوظ نفسه في معرفة هذه التواريخ.

القاهرة الجديدة : ١٩٤٥
خـان الخليلـي : ١٩٤٦
زقـاق المـدق : ١٩٤٧
السـراب : ١٩٤٨
بداية ونهايـة : ١٩٤٩
بين القصريـن : ١٩٥٦
قصر الشوق والسكرية : ١٩٥٧

* ويلفت النظر في هذه التواريخ الهوة الزمنية التي كانت تفصل بين كتابة القصة ونشرها . ولا نستطيع أن نحدد مدى اقبال الطبقة الوسطى المصرية على قراءة قصص محفوظ عند نشرها لأول مرة أو بعد ذلك ، لأنه لم تجر أية بحوث ميدانية حول هذا الموضوع، ولكن يمكن ان نقول بشكل عام ان قصص محفوظ لاقت تجاوبا لدى الجمهور المصري المنتمي الى هذه الطبقة بدليل نشرها عدة مرات[1] ، ولأن هذا الجمهور ربما كان الأكثر استهلاكا للكتب في العالم العربي بسبب ثقافته وضخامة عدده نسبيا .

وتقع أحداث هذه القصص في الفترات التالية :

القاهرة الجديدة وبداية ونهاية : قبيل الحرب العالمية الثانية .

* خان الخليلي وزقاق المدق: خلال الحرب العالمية الثانية .

السـراب : لا يمكن تحديد تاريخ أحداثها بشكل دقيق لأن الاشارات التاريخية قليلة فيها .

الثلاثيـة : بين اواخر الحرب العالمية الاولى واواخر الحرب العالمية الثانية (١٩١٧ — ١٩٤٤) : بين القصرين (١٩١٧ — ١٩١٩)؛ قصر الشوق (١٩٢٤ — ١٩٢٧)؛ السكرية (١٩٣٥ — ١٩٤٤) .

---

١ . طبعت كل من خان الخليلي وزقاق المدق والسراب واجزاء الثلاثية الثلاثة * حتى الآن ست مرات متتالية . اما القاهرة الجديدة وبداية ونهاية فقد طبعت كل منهما سبع مرات.

و يلاحظ أن محفوظ يكتب عن الفترة الزمنية التي عاش أحداثها مستخدما الشكل الواقعي للقصة دون غيره من الأشكال التي عرفها من مطالعاته في الأدب الغربي، وبعد تخليه المفاجئ عن شكل الرومانس التاريخية الذي جربه في قصص ثلاث هي : عبث الأقدار، ورادوبيس، وكفاح طيبة. ويحاول محفوظ في تعليل ذلك التحول فيقدم احتمالات ثلاثة له : (١) تطوره الفني (٢) استحواذ عوامل التأخر والفساد في المجتمع على اهتمامه (٣) المزاج الشخصي[١] . كما يورد في مجال آخر تعليلا جديدا هو أنه وجد تاريخ مصر غير مشبع، وأنه كان يلجأ للتاريخ من أجل الحاضر، ولم يكن يهتم بالتاريخ كتاريخ . وهكذا فقد رأى ان الطريق المختصر هو اللجوء الى الحاضر رأسا[٢] . وجميع هذه الاحتمالات تبدو غير كافية لأنها تتجاهل حقيقة التطور الذي حدث في مصر في الفترة التي كتب فيها محفوظ قصصه الواقعية، وكذلك في الفترة السابقة لهذه الكتابة والتي يمكن أن تعد بداية تفاعل محفوظ الواعي مع ما يجري حوله من أحداث . ويذكر محفوظ ان ثورة ١٩١٩ قامت في فترة سابقة جدا على الوعي الوطني والسياسي عنده، ولكنه يؤكد، في الوقت نفسه، أن الثورة تسربت الى وجدانه في شكل وقائع غير مرتبطة[٣] . كما يؤكد حبه الشديد لسعد زغلول وحبه للوطن في آن معا عندما كان لا يزال فتى صغيرا . كذلك يشير محفوظ الى اندماجه في الحياة السياسية في مرحلة تعليمه الثانوية، والى انضمامه الى حزب الوفد الذي كان يمثل الشعب بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣٠[٤] . وقد خرج محفوظ من الفترة التي تنتهي بوفاة سعد في عام ١٩٢٧ بثلاثة عوامل : وطنية حادة جدا، عداوة للطبقة العليا ـ طبقة الملاك والباشوات التقليديين، وايمان بالدستور لا يقل عن الايمان بالاستقلال نفسه . وكان لهذه العوامل أكبر الأثر في تكوين شخصيته العامة، ولم ينضم اليها الا عنصر واحد جديد هو الميل الى الاشتراكية الذي جاءه

---

١ . "الواقعية تطور طبيعي للأدب"، الاثنين، ١٩ كانون ثاني ١٩٥٩، ص ١٠ .

٢ . نجيب محفوظ، حديث خاص مع كاتب هذه الدراسة، القاهرة، ابريل ١٩٦٩ .

٣ . سامح كريم، "نجيب محفوظ وثورة ١٩١٩"، الكاتب، ابريل ١٩٦٩، ص ٢٣ .

٤ . عبد الحي، "عصير حياتي"، ص ٢٠ .

بفضل كتابات سلامة موسى [١]. وبعد وفاة سعد لم ينس محفوظ النضال السياسي . فهو يعلن أن الفترة التي تلت موت سعد وحتى توقيع معاهدة ١٩٣٦ كانت فترة كفاح مرير جدا من أجل الاستقلال والدستور ، وانه اشترك في اغلب مظاهرات هذه الفترة ، كما يعلن اعجابه بمصطفى النحاس الذي تميزت شخصيته بصلابة شديدة وايمان عميق ونزاهة مطلقة "حتى أنها كانت تمثل لنا في مجموعها المثل الاعلى لما ينبغي أن يكون عليه المواطن المصري الصالح" [٢] أما بعد معاهدة ١٩٣٦ فلم تعد مبادئ الوفد تشبع محفوظ " وكان أملنا في ذلك الوقت أن يتقوى الجناح اليساري في الوفد" [٣].

ويبدو أن محفوظ قد اختار الكتابة وسيلة للنضال في هذه الفترة بعد أن يئس من الوفد الذي دب فيه الفساد . وهكذا جاءت قصصه الواقعية لتعري الواقع البشع الذي كان يحياه الشعب المصري عقب اجهاض ثورة ١٩١٩ ، ولتنتقد طريقة مواجهة أبناء الطبقة الوسطى المصرية لذلك الواقع وتنكرهم لمبادئ تلك الثورة . وكما كانت قصصه التاريخية مشاركة في العمل الوطني تتسم بالرومانسية المتفائلة ، كذلك كانت قصصه الواقعية اسهاما في كشف المجتمع المصري في الثلاثينات ، وما طرأ عليه من فساد لم تكن البرجوازية نفسها بعيدة عنه مشاركة فيه أو ضحية له .

أما التطورات الاجتماعية التي أثرت في اختيار محفوظ للشكل الواقعي فكان أهمها بروز الطبقة الوسطى المصرية على مسرح الأحداث ، ومشاركتها الفعالة في ثورة ١٩١٩ ، وتوليها قيادة هذه الثورة بشخص سعد زغلول ، وتكوينها لحزب الوفد الناطق باسم مصالحها ، ثم تمكنها من تحقيق العديد من المكاسب ولا سيما تمصير الادارة ، والحد من منافسة الأجانب لها في مختلف الحقول ، والاتساع في التعليم . وهكذا نمت هذه الطبقة واتسعت فكان من الطبيعي أن يبرز كتاب يتكلمون باسمها ، ويمثلون أخلاقيتها ، ويعالجون مشكلاتها . وكان نجيب من أكثر الكتاب

---

١ . كريم ، "نجيب محفوظ وثورة ١٩١٩" ، ص ٢٧ — ٢٨ .

٢ . نفسه ، ص ٢٨ .

٣ . نفسه .

جدارة بالقيام بهذا الدور. فهو واحد من أبنائها عاش الأزمة الخانقة التي مرت بها في الثلاثينات بعد تحسن أوضاعها في أوائل العشرينات. وقد اضطرته وفاة والده لأن يعيل امه وأخته الأرملة وطفليها، مما جعله يفسخ خطبته ويفترق عن حبيبته لمواجهة الظروف الناشئة عن تلك الوفاة[1]. وهذه مشكلة نموذجية في قصص محفوظ الواقعية. كذلك قدر له أن يعيش كمعظم ابناء هذه الطبقة في قلق من الناحية المادية مدة من الزمن بسبب قلة المعاش[2]. واستطاع محفوظ ان يتحسس مشكلات الموظفين الذين يشكلون قطاعا هاما من هذه الطبقة في مصر، وذلك من خلال عمله كموظف في دوائر الحكومة، وظهر أثر ذلك التحسس جليا في قصصه.
وكان لنجيب من موهبته الفنية وثقافته الواسعة ما جعله قادرا على معالجة مشكلات الطبقة الوسطى بصورة أقرب الى الموضوعية والنضج مما فعل غيره من الكتاب، وان تقصينا لسيرته الأدبية ليوضح لنا أنه في نشاطه واصراره والنظام الصارم الذي اختطه لحياته[3] كان مثالا لابن الطبقة الوسطى المجتهد والمنظم والواعي للدور الذي يقوم به. وقد اتسعت قراءاته لتشمل الأدبين العربي والغربي، فضلا عن الفلسفة وسائر العلوم الانسانية، والفنون التشكيلية، والعلوم الطبيعية. وفي مجال القصة قرأ نجيب الادب الحديث الواقعي والطبيعي والتحليلي، والمغامرات الأدبية الحديثة كالتعبيرية عند كافكا، والواقعية النفسية عند جويس، والغاء الزمن في القصة عند بروست. وعرف الواقعية عند جولسورثي و د. هـ. لورنس والدوس هاكسلي وفلوبير وستندال، وتأثر بتولستوي ودستويفسكي وتشيكوف وبروست وتوماس مان وكافكا من كتاب القصة بنوع خاص. وبدأ بكتابة المقالة والأقصوصة ونشرهما في الصحف، وكتب قصصا كثيرة لم تنشر، كما لاقت قصصه اهمال النقاد

---

١. جاذبية صدقي، "لماذا لم يتزوج"، صباح الخير، يناير، ١٩٥٨، ص ٣٥
٢. فؤاد دوارة، "رحلة الخمسين مع القراءة والكتابة"، الكاتب، يناير ١٩٦٣، ص ٢٢
٣. يؤكد الذين يعرفون محفوظ تقيده بالنظام في حياته اليومية بشكل صارم. راجع مثلا: محمد عفيفي، "نجيب محفوظ رجل الساعة"، الهلال، فبراير، ١٩٧٠، ص ١٣٧ — ١٤١.

بادئ الأمر ، ومع ذلك تمسك بعناد الثيران ،على حد قوله ،غير عابئ بصدى قصصه او شعبيتها بين النقاد والجمهور[١] . وكما رأيناه يتوقف فجأة عن كتابة القصة التاريخية ليبدأ بمعالجة القصة الواقعية نراه مرة اخرى يتوقف عن كتابة القصة الواقعية بعد انتهائه من كتابة الثلاثية في عام ١٩٥٢ ، لأن الرغبة في نقد المجتمع القديم ذهبت بذهاب ذلك المجتمع بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢[٢] . وبعد توقف دام سبع سنوات بدأ محفوظ مرحلة جديدة في كتابة القصة يمكن تسميتها بالواقعية الجديدة ،حيث الفكرة تسبق الحدث وحيث الباعث الى الكتابة أفكار وانفعالات معينة تتجه الى الواقع لتجعله وسيلة للتعبير عنها . وانتقل بذلك من معالجة مآسي المجتمع الى معالجة مأساة الوجود [٣] . وظل ، في الوقت ذاته ، يستخدم شخصيات من الطبقة الوسطى في الأغلب.

وتقنعنا مطالعتنا لقصص محفوظ الواقعية أن الكاتب استطاع استيعاب المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي واجهت الطبقة الوسطى الصغيرة في مصر في فترة ما بين الحربين ، والعوامل المختلفة التي كانت تتفاعل داخل المجتمع المصري آنذاك جاعلة أبناء جيل محفوظ وبعضا من أبطال قصصه يعانون من "أزمة نفسية غريبة جدا طابعها التشاؤم الشديد والاحساس بعدم قيمة اي شيء في الدنيا والعبث"[٤] ، أو يتحولون الى ضائعين وانتهازيين قصيري النظر . ولعل من أبرز

---

١ . هذه المعلومات عن ثقافة محفوظ وكتاباته الاولى مأخوذة من دوارة ، "رحلة الخمسين" ص ٥ — ٢٣

٢ . نفسه ، ص ١٧

٣ . يفرق محفوظ ، في مقابلة أجريت معه ،بين مأساة الوجود المتمثلة في الموت ومآسي المجتمع المفتعلة كالجهل والفقر والاستعباد والعنف والوحشية الخ . ويرى ان حل مأساة المجتمع قد يحل في النهاية مأساة الوجود او يخففها .

غالي شكري ، "نجيب محفوظ يتحدث عن فنه الروائي ،حوار ، مارس — ابريل ، ١٩٦٣ ، ص ٧٣ — ٧٤

٤ . دوارة ، "رحلة الخمسين" ، ص ٢١

هذه العوامل التصادم بين الشرق والغرب وحيرة المثقفين بينهما ، والمرحلة الانتقالية التي كان يمر فيها المجتمع المصري ، وما يعنيه ذلك من اهتزاز في القيم ، ونشوء فجوة حضارية بين الأجيال ، وفوق ذلك كله أزمات اقتصادية عنيفة ، وفساد سياسي شامل ، وتحديد شديد للتحرك الاجتماعي وفوارق طبقية حادة بحيث أن ذلك الجيل نشأ ، كما يقول محفوظ ، " مكبوتا يكدس في داخل نفسه العقد والانطوائية والحرمان والطبقية والفقر وقلة الكرامة والخوف من ضياع لقمة العيش "[١] . ولا يمكن أن يفسر التشاؤم الذي يميز هذه القصص بمنأى عن هذه الأوضاع .

اذا كانت قصص محفوظ ثمرة تفاعل مع الاوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كانت تمر بها الطبقة الوسطى المصرية في فترة ما بين الحربين ، وقدرة الكاتب على استيعاب تلك الأوضاع وعيشه تحت وطأتها من جهة ، وثقافته الواسعة وتمرسه بكتابة القصة اللذين جعلاه قادرا على نقل تحسسه لهذه الأوضاع في شكل فني ناضج يجاري القصة العالمية من ناحيتي الشكل والمضمون من جهة أخرى .

وهكذا كان محفوظ كاتبا ملتزما في اختياره معالجة مشكلات الطبقة الوسطى المصرية واختياره الشكل الواقعي للقصة في هذه المرحلة من تطوره الفني . ولكن التزامه هذا كان التزاما ذاتيا داخليا ناتجا عن معاناة داخلية صحيحة للواقع الذي كان يعيشه . ويشير محفوظ الى ذلك بقوله أن ليس ما يدعوه للتشيع لمذهب أدبي بعينه غير موقفه الحضاري من الداخل ، وانه ان كان آمن في وقت من الاوقات بأنه كاتب واقعي فقد أخذ ذلك من النقاد[٢] . كما يصرح في مقابلة أجريت معه بأن

---

١ . ابراهيم الورداني ، "رحلة في رأس نجيب محفوظ" ، الجمهورية ١٦ ابريل ، ١٩٦٠ ، ص ٩

٢ . دوارة ، "رحلة الخمسين" ، ص ١٩ .

مفهوم الطبقة لم يكن في ذهنه في يوم من الأيام، و لكن الكاتب ينتسب عادة الى مجموعة من المجتمع لا يستطيع بحكم صدقه الفني أن يكتب عن سواها [١].

و يلاحظ قارئ قصص محفوظ الواقعية أن كاتبها يحرص على أن يصور دور البرجوازية الصغيرة بموضوعية، فلا هو يتحامل عليها و لا هو يقف محاميا عنها. و هو يختلف بذلك عن كثير من كتاب القرن التاسع عشر الغربيين الذين عالجوا مشكلات الطبقة الوسطى مستخدمين الشكل الواقعي للقصة أمثال بلزاك و فلوبير و دكنز [٢].

و تتجلى موضوعيته في الناحية الفنية بنوع خاص. فهو، كما يقول غالي شكري، يسلط أضواءه على مختلف العوامل التي تؤثر في الشخصيات، و لا يبرز عاملا حاسما، و يصور العلاقة الاجتماعية في تفاعلها المعقد مع بقية العلاقات من جانب، و مع الواقع

---

١. عبد الحي، "مصير حياتي"، ص ٢٠.

٢. يقول بالم ان بلزاك انتقد البرجوازية و صورها كآفة تقضي على كل جمال و نقاء حقيقيين ورأى ان الحياة تحت نظامها كانت تحركها الأهواء الدنيئة تحت ستار من الادعاء و المظاهر الخادعة. ورسم بوضوح صور الصراع العنيف و النجاح الذي لا يرحم و الاخفاق المثير للشفقة في مجتمعها القاسي

The Middle Classes-Then and Now (New York: The Macmillan Comp., 1936), P. 231.

و كذلك يذهب بالم الى القول ان فلوبير لم يكن مراقبا محايدا للمتسلقين اجتماعيا، فهو يكرههم و نادرا ما يرسم الشخصية منهم بعطف، و احتقر عادات البرجوازيين و افتقارهم للذكاء و ازدراءهم للجمال (المرجع نفسه، ص ٢٣٤ — ٢٣٥)

أما موقف دكنز من الطبقة الوسطى فكان متذبذبا، تطلع كشاب الى راديكالية برجوازية محترمة و هاجم بعض الشرور الاجتماعية، و انتهى كثوري كهل ذي عداء غريب للطبقات الوسطى. و قد ظهر أثر ذلك في تصويره لكل طبقة اجتماعية و في شخصيات قصصه الرئيسية.

Angus Wilson, "The Heroes and Heroines of Dickens" in Dickens-A Collection of Critical Essays Ed. Martin Price, 20th C. Views (Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall Inc., 1967), PP. 18-19.

الحضاري للمجتمع من جانب آخر، و مع التكوين الذاتي لنفسية الفرد من جانب ثالث. كما أنه يستعين بكافة الأدوات الفنية الخاصة بمذاهب أدبية متعددة و لا يتقيد بحرفية الاتجاه الواقعي بل يستهدفه في مدلوله الكبير الشامل[١]. وتعليل ذلك كامن في تمكن محفوظ الاستفادة من كافة المذاهب و المدارس و الفلسفات و العلوم التي اطلع عليها دون أن يتخذ موقفا حاسما من أي منها. وكامن أيضا في اطلاعه على سائر الاتجاهات في القصة قبل أن يختار الاتجاه الواقعي في تلك المرحلة من تطوره الفني وهذا ما لم يتح لرواد القصة الواقعية الغربيين. وقد استطاع محفوظ أن يخطو بالقصة العربية خطوات هامة الى الأمام وتمكن، كما يقول حسن السكوت "أن يخلص القصة العربية من العيوب الفنية التي كانت تظهر في قصص غيره من المؤلفين. فلا نجد في قصصه شرودا عن الموضوع الرئيسي، ولا مصادفات بعيدة، ولا تعليما مباشرا، ولا مبالغة في الحبكة أو رسم الشخصيات. بل نراه يرسم كل وضع بدقة عظيمة وعناية غير عادية بحيث يصح أن يقال ان القصة العربية دخلت بقصصه الواقعية في عهد جديد"[٢].

---

١. شكري، أزمة الجنس في القصة العربية، ص ١٠١ و ١٢٤. كذلك يؤكد رجاء النقاش حياد محفوظ الفني في قصصه الواقعية والذي يتجلى "في التعبير وتصوير البيئة و الشخصيات و تغليب الواقع الخارجي على انفعالات الفنان ومشاعره". أدباء معاصرون (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٨)، ص ١٧٥.

٢. H. S. A. al-Sakhut, The Egyptian Novel andIts Main Trends from 1913 to 1952 (Unpublished Ph.D Dissertation) cited in al-Warraki, The Novels of Najib Mahfuz Subsequent to the Triology, P. 47.

و يمكن القارئ التعرف الى مزيد من العيوب الفنية التي كان يقع فيها كتاب القصة قبيل الفترة التي بدأ فيها محفوظ كتابه القصة في :

عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠-١٩٣٨) (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣) و يقارن الكاتب احيانا بين قصص هولاء الكتاب و بين قصص نجيب محفوظ من الناحية الفنية - ص ٢٣٧ مثلا، حيث يقارن بين تصوير البيئة عند عيسى عبيد و محمود تيمور من جهة وعند محفوظ من جهة اخرى.

الفصـــل الأول

تركيب الطبقة الوسطى المصرية وانعكاسه في قصص محفـوظ

ليست محاولة تحديد الطبقة الوسطى بالأمر السهل ،لأن المقاييس الـــتي سيعتمد عليها في مثل هذا التحديد تختلف من بلد الى آخـــر ، كما تختلف أهمية كل منها باختــلاف المجتمعــات. وهكذا فان اعتبار الدخل ، والسلطة (Power) ، والمهنة او الوظيفة (Occupation) والمرتبة الاجتماعية (Status) كمقاييس،و محاولة تطبيقها على مجتمع ما بشكل تبسيطي قد يكون أقرب الى التضليل منه الى الافـادة. ولا بد أن يقترن تحديد التركيب الطبقي لأي مجتمع ببحوث ميدانية دقيقة حـــتى تأتي نتائجه علمية وواقعية[1] . ومع ذلك ،وبعد ابداء هذه التحفظات، قد يكـون

---

١ . يقدم ريتشارد سنترز (Richard Centers) في كتابه :

The Psychology of Social Classes — A study of Calss Consciousness (Princeton: Princeton University Press, 1944).

نموذجا جيدا لمثل هذه الدراسة. ويعرف سنترز في هذه الدراسة الطبقـات الاجتماعية فيقول انها في طبيعتها المميزة أو الأساسية يمكن أن توصف بأنهـا جماعات مبنية على أساس نفسي أو ذاتي ، وأن الاجزاء المتممة لتركيبها هـــي ميول أفرادها نحو مفاهيم مشتركة للمؤهلات الضرورية للعضوية فيها ،و ميول نحو مفاهيم مشتركة للميزات المهنية لأعضائها ،و ميول نحو مواقف او معتقدات و تصرفات مشتركة في الأمور الاقتصادية والسياسية ، وربما ميول نحو مواقف و معتقـــدات و تصرفات مشتركة في أمور أخرى عديدة لم تكتشف أو تحدد حتى الآن ، وأن =

من المفيد هنا أن نورد تعريفا للطبقة الوسطى أعطاه بيرغر في مجال كلامه عن الطبقة الوسطى في العالم العربي ، وجاء فيه أن هذه الطبقة تضم فئتين من الناس:

١ . أولئك التجار والصناعيين الصغار المشتغلين لأنفسهم والذين لا يسمع دخلهم ونفوذهم بوضعهم بين الرجال ذوي القوة الحقيقية في الحياتين السياسية والاقتصادية

٢ . فئة أخرى أكثر اختلاطا تضم مهنيين مستقلين كالأطباء والمحامين ، ومديرين معينين ، وتقنيين ، وعمالا اداريين مثل الكتبة ورؤساء الدوائر الرسمية وموظفي الحكومة المدنيين [1] .

وفي حين لا يوجد اختلاف كبير بين الباحثين بالنسبة لحجم هذه الطبقة ودورها في البلدان الصناعية المتطورة ، نرى أن اختلافا كبيرا في الآراء قد ظهر حول هذا الأمر بالنسبة للبلدان النامية غير الصناعية. فنرى باحثا مثل فان نيوونهجز (C. A. O. Van Nieuwenhuijze) ينفي وجود طبقة وسطى في بلدان الشرق الأوسط ،

== هذه الميول المشكلة كلا تاما في تركيب الطبقات الاجتماعية هي رد فعل الأفراد أو استجابتهم لأوضاع حياتهم المعقدة كلها . ولكنها تحدد الى حد كبير بمرتبتهم الاجتماعية وأدوارهم في نشاطاتهم المعيشية. كما يعطي نتائج بحوثه بالنسبة لتركيب الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة الاميركية انطلاقا من هذا التعريف.

١ . Morroe Berger, "The Middle Classes in the Arab World" in the Middle East in Transition, ed. Walter Laqueur (London: Routledge, 1958), P. 63.

وينفي بالتالي وجود نظام طبقي ذي أنماط تحركية. ويرى أنه توجد فقط فئات عليا وفئات سفلى مميزة بالدرجة الأولى بذاتها، ومختلفة بشكل ثانوي عن سائر السكان وتوجد أخيرا ظاهرة ذات طبيعة ثانوية هي الفئات المتفرقة ذات الوضع المتوسط (Intermediate) وليس الأوسط (Middle)[١].

ونرى من ناحية أخرى باحثا هو مانفرد هالبرن يؤكد ليس فقط وجود طبقة وسطى في هذه البلدان يسميها الطبقة الوسطى الجديدة، بل يؤكد أيضا الدور الكبير الذي تلعبه بتسلمها المتزايد لدور القيادة في كل مجالات حياة الشرق الأوسط. وتضم هذه الطبقة المديرين، والاداريين، والمعلمين، والمهندسين، والصحفيين، والمحامين، وضباط الجيش. وتختلف عن مثيلتها في البلدان الصناعية، لأن الشرق الأوسط انتقل الى العصر الاداري الحديث قبل أن يصل الى العصر الآلي، ووصلت الطبقة الوسطى فيه الى السلطة قبل أن تضمن مرتبتها وتضمن النظام والأمن والازدهار. وهكذا فهي تستعمل سلطتها ليس للدفاع عن الملكية والنظام بل لايجادهما، ودون أن تكون ملتزمة نهائيا بأي نظام معين من المؤسسات. وتلعب هذه الطبقة الوسطى الجديدة المعاشية دورا أهم بكثير من دور الطبقة الوسطى صاحبة الملكية لأنها تدير الدولة التي لا يمكن أن تجاريها أية مؤسسة أخرى من حيث القوة والرأسمال. ويشكل أهل الفكر القوة الأكبر والأنشط سياسيا في هذه الطبقة، وقد يأتي هؤلاء من عائلات مغمورة، ويحدد عضويتهم الطبقية

---

١. C. A. O. Van Nieuwenhuijze, Social Stratification and the Middle East (Leiden: E. J. Brill, 1965), P. 77.

الدور الذي يقومون به وليس انتماؤهم العائلي لطبقة اجتماعية تقليدية معينة. كذلك يشكل الشباب الآتون من المناطق النائية العمود الفقري لهذه الطبقة. ويشير هالبرن أخيرا الى أن هذه الطبقة تساعد بدورها على نشوء طبقتين أخريين قريبتين منها، هما: الطبقة الوسطى الكبيرة، والطبقة الوسطى الصغيرة[١].

وبالنسبة للطبقة الوسطى المصرية يرى بيرغر أنها كانت تشكل في عام ١٩٤٧ حوالي ٣٪ من مجموع السكان، او حوالي ٦٪ من السكان المستخدمين مقابل أجر مربح، وأن حوالي نصف هذه الطبقة كانوا من التجار الصغار. وتزيد نسبة الكتبة من رتب مختلفة على نسبة المهنيين كالممثلين والأطباء والكيمائيين والصيادلة ومدراء المدارس واساتذة الجامعة واساتذة المدارس والمؤلفين والمحررين والمحامين والمهندسين. أما رجال الأعمال والوكلاء فلم يكونوا يشكلون سوى نسبة ضئيلة من هذه الطبقة[٢].

ويرى حسن الساعاتي، من ناحية أخرى، أن هذه الطبقة كانت تشكل في العام ذاته حوالى ١٦٪ من مجموع السكان. ذلك أنه يدخل في حسابه الطبقة الوسطى الزراعية التي كانت تشكل، في رأيه، ٨١،٦ من الطبقة الوسطى المصرية ككل. أما المشتغلون بالصناعة من هذه الطبقة فكانوا يشكلون ١،٥٪ منها، وبتجارة البناء ٤،٠٪، وبالنقل والبريد ١،٦٪، وبالتجارة ٩،٦٪. أما الذين يؤدون خدمات

---

١. Manfred Halpern, The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa (Princeton: Princeton University Press, 1963), PP. 51-71.

٢. Berger, "The Middle Classes...", PP. 63-64.

عامة و اجتماعية كالفنانين و الأطباء و المعلمين و الاساتذة الجامعيين و المؤلفين و الصحفيين ورجال الدين و الاداريين العامين و المحليين و القضاة و المحامين وضباط البوليس و الجيش فكانوا يشكلون ٢٣،٧٪ . وكان المشتغلون بالخدمات الشخصية يشكلون ٠،٣٪ ، وأصحاب الأعمال الغامضة وغير المربحة ٧،٠٪ والطلاب ٦،٠٪ . وهكذا فان الطبقة الوسطى في المدن كانت تشكل نسبة ١٨،٤٪ من مجموع الطبقة الوسطى المصرية اي حوالي ٣٪ من مجموع السكان[1] . وبذلك يتفق الساعاتي مع بيرغر بالنسبة لحجم هذه الطبقة المدينية .

ويرى هالبرن بالمقابل أنه لو أحصيت الطبقة الوسطى الجديدة المكونة من أصحاب الرواتب الموظفين منهم وغير الموظفين لارتفعت النسبة كثيرا عما ذكر كل من بيرغر والساعاتي[2] .

ويرجع الدكتور محمد أنيس نشأة الطبقة الوسطى المصرية الى القرن الثامن عشر ، ويرى أنها كانت تتمثل في جناحين : المشايخ ورجال الدين من ناحية ، والتجار والحرفيين من ناحية أخرى[3] . وأخذ ساعد هذه القوة الجديدة يشتد

---

١ . Hassan El-Saaty, "The Middle Classes in Egypt", L'Egypt Contemporaine, April, 1957, P. 50.

٢ . Halpern, The Politics of Social Change., P. 53, Footnote.

٣ . تنقل ليلى حمامصي في بحث لها بعنوان "Rural and Urban Social Structure in Egypt", PP. 24-25. قدم الى بعثة الأمم المتحدة الخاصة بمشكلات التمدين في بلدان حوض البحر المتوسط، نوفمبر ١٩٥٩ ، عن بحث غير مطبوع لناديا حجاج بعنوان "Changes in Egyptian Family Life" عرضا تاريخيا للتقسيم الطبيقي في مصر

سياسيا أكثر منه اقتصاديا حتى استطاعت في اصطدامها مع البكوات والمماليك في أواخر عهدهم أن تحرز انتصارات كثيرة عليهم. كما لعبت دورا كبيرا في مقاومة الاحتلال الفرنسي وفي تثبيت حكم محمد علي وابقائه حاكما على مصر. ولكن هذا ما لبث أن أطاح بهذه القوة الناهضة، وأقام دولته على أكتاف مجموعة من الموظفين والأتباع من الأتراك والألبان والأجانب الذين حلوا محل طبقة المماليك سابقا وقوي نفوذهم بصورة خاصة في عهد اسماعيل. الا أن سياسة محمد علي الاقتصادية والادارية والتربوية واصلاحاته في هذه المجالات والتي أدت الى تقلص نفوذ العلماء بعد انتشار الأفكار الغربية والعلم، والى معاناة التجار والحرفيين من احتكار التجارة والصناعة، أدت من ناحية أخرى الى بروز طبقة وسطى مصرية جديدة نشأت من الزراعة بعد ارساء نظام الملكية الخاصة للأرض. كما أن مجالا هاما من مجالات هذه الطبقة كان بيروقراطية الدولة ومنها العسكرية[1]. ومن هذين الجناحين

== تحاول فيه الكاتبة أن تحدد التركيب الطبقي للمجتمع المصري في عهد المماليك على الشكل التالي: ١. المماليك الحاكمون. ٢. العلماء المتنورون وذوو النفوذ على المماليك. ٣. التجار ذوو الثروة والذين كانوا بالاضافة الى بعض الرسميين والسكرتيرين وبعض العلماء يكونون طبقة وسطى صغيرة متمتعة بالرخاء. ٤. الحرفيون والصناع المهرة. ٥. الفلاحون.

١. يذكر غابرييل بير أن محمد علي حاول أن يحل شيوخ القرى والبدو والمصريين محل الأتراك في المستويات السفلى من الادارة. وأنه في عام ١٨٤٠، وللمرة الأولى، حاول أن يحل ضباطا مصريين في البحرية محل الضباط الأتراك. أما سعيد فقد أعاد التجربة على نطاق واسع، فأمر بأن يكون ثلث نظراء الأقسام ونصف حكام الخط من المصريين، وقبيل انتهاء حكمه كان أغلب الأتراك قد اعفوا من وظائفهم. وفي الوقت ذاته، حاول سعيد أن يوجد طبقة من الضباط المصريين، فاستدعى أبناء شيوخ القرى الذين سبق أن أعفوا من الخدمة ==

للبرجوازية المصرية تألفت النواة التي تصدت للتدخل الأجنبي السياسي والعسكري الذي بدأ في عهد محمد علي وتفاقم في عهد اسماعيل وهي الحركة المعروفة بالثورة العرابية. كذلك ظهرت في عصر محمد علي طبقة جديدة من المثقفين المتأثرين بالثقافة الغربية ولا سيما الفرنسية يمثلهم رفاعة رافع الطهطاوي [١].

ويشير عبد العظيم رمضان الى اختلاف ظروف نشأة البرجوازية في مصر عن ظروف نشأتها في أوروبا، واختلاف الدور التاريخي والسياسي لكل منهما. فالطبقة البرجوازية المصرية "لم تنشأ على المسرح السياسي — أي لم تقم بدور سياسي — بوصفها طبقة جديدة تتميز بنظام خاص معين من الانتاج لا يقوم على تملك الأرض وتسعى لتثبيت أركان هذا النظام وتثبيت قواعده على أنقاض النظم القديمة الاقطاعية،

== حتى ذلك الحين، وكان أحمد عرابي واحدا منهم وبلغ رتبة البكباشي في عام ١٨٦٠. ولكن تجربته لم تنجح وترك عديد من الضباط وحداتهم او تهربوا من الخدمة، مما اضطر سعيد الى صرف معظم ذلك الجيش. وأكمل اسماعيل سياسة سعيد. ولكن النتيجة كانت حلولا جزئيا لمدراء مصريين مكان الأتراك. وفي نهاية السبعينات، كانت مستويات الادارة السفلى، مع ذلك، مصرية تماما وكذلك الأمر بالنسبة للجيش. ولكن الأتراك والشراكسة ظلوا محتفظين بالسيطرة على المراكز التي تصدر الأوامر فيه. وكان ذلك احدى المظالم التي أدت الى الثورة العرابية.

Gabriel Baer, "Social change in Egypt: 1800-1914", in <u>Political and Social Change in Modern Egypt</u> ed. P. M. Holt (London: Oxford University Press, 1968), PP. 148-149.

١. محمد انيس، "مصر من الاقطاع الى الرأسمالية ١٧٩٨ — ١٨٨٢"، <u>الكاتب</u>، يوليو، ١٩٦٥، ص ١٠٦ — ١٢١.

وانما برزت كطبقة وطنية يتحدد مكانها اجتماعيا بين الطبقة الحاكمة الأجنبية التي كانت تتكون اذ ذاك من شراكسة وأتراك وأرناءوط وغيرهم، وبين طبقة الفلاحين الملتصقة بالأرض." ويؤكد أنها نبعت في الأصل من طبقة ملاك الأرض ولم تنبع من الطبقات الدنيا فلم يقم في مصر صراع بين الطبقتين الاجتماعيتين اللتين تمثلان الاقطاع والرأسمالية[١].

" وفي عهد الاحتلال تضخمت قوة الطبقة البرجوازية المصرية الزراعية نتيجة عناية الاحتلال بالزراعة. ومن الناحية السياسية أيضا اعتمد الاحتلال على الرأسمالية الزراعية المصرية، فمنهم كان يتشكل مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية حتى عام ١٩١٣، ثم الجمعية التشريعية بعد ١٩١٣ ومجالس المديريات"[٢]. وقد اشتركت هذه الطبقة مع المفكرين من ذوي العقائد الحرة أمثال أحمد لطفي السيد في تكوين حزب الأمة[٣]. أما فئات البرجوازية المصرية المثقفة من موظفين

---

١. عبد العظيم رمضان، تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٣٦ (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٨)، ص ٢٥. ويرى غابرييل بير ان عدم وجود طبقة مصرية اهتمامها الرئيسي متركز في المدن وفي تنمية الاقتصاد المدني على غرار البرجوازية الاوروبية عائد الى تداخل طبقتي التجار والرسميين من جهة والملاك من جهة أخرى. وميل الأولى الى شراء الأرض واتجاه الثانية الى التوظف في الحكومة في القرن التاسع عشر.

Holt, Social Change in Egypt..., P. 158.

٢. محمد انيس، "ثورة ١٩١٩ تحالف الطبقات بقيادة الرأسمالية الوطنية"، الكاتب، اغسطس، ١٩٦٥، ص ١٧.

٣. رمضان، تطور الحركة الوطنية، ص ٤١.

وطلبة و محامين فلم تتقدم كثيرا في هذا الدور، لأن الاحتلال لم يشجع التعليم، و لم يتوسع فيه كثيرا ، و بسبب مزاحمة الأجانب لها . و كانت هذه الفئات تعمل تحت لواء الحزب الوطني في الأغلب[1] . "و يلاحظ أنه لا نكاد نسمع في هذه الفترة (حتى الحرب الاولى) أي ذكر لطبقة وسطى صناعية او تجارية، لأن الأجانب كانوا مسيطرين ليس فقط على استثمار الأموال على نطاق واسع و على الصناعة و التجارة الكبيرتين ، بل أيضا على الصناعة و التجارة الصغيرتين"[2] .

أما ظروف الحرب الأولى فقد أفادت بعض فئات الطبقة الوسطى ، و أضرت بالبعض الآخر منها . و من الفئات التي أفادت من ظروف الحرب الرأسمالية الوطنية . ذلك أنه عند ما نشبت تلك الحرب كان أول آثارها انقطاع سيل رؤوس الأموال الأجنبية . و كان الأثر التالي تعذر استيراد معظم السلع الجاهزة من البلدان الأجنبية "و هكذا أتيح لرأس المال المصري فرصة النزول الى السوق التي كانت وقفا على رأس المال الأجنبي ، في ظل حماية الزامية جادت بها ظروف الحرب". و قد استفادت الرأسمالية المصرية من تلك الفرصة ، فدخلت ميدان الصناعة ، و نظمت صفوفها على أثر تأليف الحكومة "لجنة التجارة و الصناعة" المعروفة في ١٩١٦ من فحول الرأسماليين المصريين و من بينهم طلعت حرب. و ظهرت مشاريع صناعية و لكنها كانت من النوع المحدود الذي يتبع نظم الانتاج الفنية العتيقة[3] .

---

١ . نفسه، ص ٣٤ .

٢ . Charles Issawi, Egypt at Mid-Century-An Economic Survey (London: Oxford University Press, 1954), P. 42.

٣ . رمضان ،تطور الحركة الوطنية، ص ٧٠ — ٧٢ .

و من هذه الفئات أيضا البرجوازية الصغيرة المكونة من صغار التجار و الصناع و التي كانت محتجبة في فترة ما قبل الحرب وراء طبقة كثيفة من العناصر الاجنبية التي تولت زمام النشاط التجاري و الصناعي في البلاد ، و لم تترك للعناصر الوطنية سوى الأعمال البسيطة. و لكن ظروف الحرب أتاحت لها بعض الانتعاش بسبب اختلال التبادل التجاري و قيام صعوبات في سبيل استيراد المصنوعات، وعودة الكثير من الأجانب الى أوطانهم . و هكذا برز الى الميدان بعض أهل الحرف و نشطت التجارة[1] .

أما الفئة التي أضرت بها ظروف الحرب فهي التي يدعوها رمضان فئة الانتلجنتسيا . وكانت هذه الفئة غريبة في ديارها محرومة من شغل المراكز اللائقة بها ، فقد احتجبت اجتماعيا في أوائل عهد الاحتلال وراء ثلاث فئات استولت على أهم المناصب و أعلاها نفوذا في الدولة و اكبرها أجرا و هي : الأجانب و السوريون و الانجليز. وكانت فترة الحرب محنة لها اذ عانت من ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية. كما أن انتهاء الحرب شهد تدفق الموظفين الانجليز، و بالتالي ازدياد متاعب هذه الفئة. وتتصل بهذه الفئة فئة الطلاب التي كان أفرادها يواجهون مشكلة المزاحمة الأجنبية بعد تخرجهم[٢] .

وكان انتهاء الحرب يعني انتهاء مكاسب الفئات المستفيدة من ظروفها و المتطلعة الى مكاسب أكبر من ناحية ، دون أن يعني تخفيف مشكلات الفئات المتضررة أو حلها من ناحية أخرى . و لعل هذا ما يفسر مشاركة الطبقة الوسطى المصرية في ثورة ١٩١٩ ولعبها دورا بارزا و رئيسيا فيها .

---

١ . نفسه ، ص ٧٢ — ٧٤ .

٢ . نفسه ، ص ٧٤ — ٧٨ .

ومع أن الطبقة الوسطى لم تحقق جميع أهدافها من الثورة، الا انها خرجت منها بمكاسب عديدة. ولعل تأسيس بنك مصر في عام ١٩٢٠ كان أهم هذه المكاسب على الاطلاق. وقد وصل رأسمال هذا البنك الى مليون جنيه في عام ١٩٢٧، وأسس شركات صناعية عديدة بلغ مجموع رأسمالها حتى عام ١٩٣٨ ثلاثة ملايين ونصف المليون جنيها، واحتياطيها مليونا ونصف المليون من الجنيهات. كذلك فان التعديل الجمركي في عام ١٩٣٠ لعب دورا كبيرا في تشجيع الصناعة المصرية وهكذا بدأ الرأسمال المصري يحل تدريجيا محل الرأسمال الأجنبي. وفي حقل التجارة أيضا أخذ المصريون يحلون محل الأجانب بحيث صاروا يشكلون نسبة متزايدة بعد أن كانوا أقلية لا تكاد تذكر في عام ١٩٢٠[1]. وهكذا صار التجار والصناعيون المصريون قوة هامة بعد الحرب العالمية الثانية وصار بامكانهم، كما تقول ليلى الحمامصي، أن ينافسوا الأجانب بشكل جدي وأن يتحدوا، بمعونة المهنيين، سلطة ملاك الأرض بشكل جدي أيضا[2].

ومن المكاسب التي حققتها فئات الطبقة الوسطى المصرية الأخرى تمصير الادارة تدريجيا بعد تصريح فبراير سنة ١٩٢٢. وقد لعبت وزارة سعد في سنة ١٩٢٤ دورا بارزا في هذا المجال[3]. ومنها أيضا التوسع في التعليم بعد سنة

---

١. Charles Issawi, "The Entrepreneur Class" in Social Forces in the Middle East ed., S. N. Fisher (Ithaca: Cornell University Press, 1955), PP. 126 - 127.

٢. Al-Hamamsy, "Rural and Urban Social Structure in Egypt", P. 29.

٣. لمعرفة بعض التفاصيل عما حققته وزارة سعد راجع رمضان، تطور الحركة الوطنية...، ص ٤٥٦ — ٤٥٧.

١٩٢٤ فزاد عدد الطلبة في المدارس بنسبة كبيرة كما ارتفعت ميزانية التعليم. وقد أدى ذلك، كما يقول راشد البراوي، الى ظهور طبقة وسطى جديدة تقيم في المدن وتشمل:

١. صغار و متوسطي موظفي الحكومة. وهم يمثلون نسبة كبيرة، و يعملون في الادارات و المصالح المختلفة في كل مكان، و دور العلم المتعددة في شتى مراحلها. و منهم عدد كبير من ضباط الجيش و البوليس.

٢. صغار و متوسطي موظفي الشركات و المشروعات غير الحكومية و مستخدميها من المصريين.

٣. معظم رجال المهن الحرة مثل الأطباء، والمحامين، والمهندسين، والمحاسبين، والكتاب، والصحفيين، والأدباء.

٤. طلاب الجامعات والمعاهد والأزهر.

٥. العدد الوفير من صغار رجال التجارة و الصناعة[1].

ويبدو أن هذه الفئات التي يطلق عليها البراوي اسم الطبقة الوسطى الجديدة كانت تشكل المرتبتين الوسطى والسفلى من الطبقة الوسطى المصرية في ذلك الدور. ويبدو كذلك أن الهوة بدأت تتسع بين هذه الفئات وبين الفئات الصناعية والتجارية الكبيرة أثناء الحرب الثانية بنوع خاص اذ دخلت هذه الأخيرة مرحلة الاحتكار، في حين أن ظروف الحرب وآثارها " شكلت ضغطا لا هوادة فيه على أوضاع الطبقة الوسطى المعاشية والصغيرة التي لم يرتفع دخلها الا قليلا جدا"[2].

---

١. راشد البراوي، حقيقة الانقلاب الاخير في مصر (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٢)، ص ٧٤-٧٥.

٢. Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 262.

وهكذا فان تركيز محفوظ على هذه الطبقة الوسطى الجديدة دون غيرها كان له ما يبرزه في الفترة التي كتب فيها قصصه في حدسه لدور الطبقة الوسطى المصريــة ومشكلاتها . ويبقى ابراز تركيب هذه الطبقة في تلك القصص ومدى توافقه مع مـــا أورده الباحثون عن تركيبها .

ولعله من المفيد أن نبدأ باثبات جداول بأسماء شخصيات قصص محفــوظ موضوع دراستنا مع ذكر وظيفة كل منهم معتمدين في ترتيبهم على أهميتهم في تلــك القصص. وذلك تسهيلا لعملية التحليل والاستنتاج ، ولكي تتضح هذه العمليــة للقارئ ليتأكد من مدى صواب الاستنتاجات.

القاهــرة الجـديـدة :

١ . محجوب عبد الدائم ـ طالب جامعي ثم موظف (درجة سادسة) . والده كاتب بشركة الألبان اليونانية بالقناطر خدمة ٢٥ عاما ومرتب ٨ جنيهات.

٢ . علي طه ـ طالب جامعي ـ ابوه مترجم ببلدية الاسكندرية أحواله المادية جيـــدة .

٣ . مأمون رضوان ـ طالب جامعي ـ ابوه مدرس بالمعاهد الدينية ذو مرتب حســـن .

٤ . سالم الاخشيدي ـ سكرتير الوزير ومرشح ليكون مدير مكتبه (درجـــة خـــامســـة).

٥ . احمد بدير ـ طالب جامعي وصحفي .

٦ . احسان شحاته ـ طالبة ـ والدها يملك دكان سجاير بجوار الجامعة .

٧ . احمد افندي حمديس ـ مهندس بالقناطر سابقا .

خـــان الخليلـــي:

١ . احمد عاكف ـ موظف صغير (درجة ثامنة) بوزارة الأشغال ـ يحمـــل البكالوريـــــا .

٢ . رشدي عاكف ـ موظف في بنك ـ يحمل بكالوريوس في التجارة .

٣ . أحمد راشد ـ محامي .

٤ . عاكف افندي والد أحمد ـ موظف سابق محال على المعاش ـ مرتبـــه ٦ جنيهـــــات .

٥ . الست دولت أم أحمد ـ تعمل في البيت فقط .

٦ . نوال خليل ـ طالبة .

٧ . كمال أفندي خليل ـ موظف بالمساحة .

٨ . سليمان بك عتـــة ـ مفتش بالتعليم العالي .

٩ . سيد افندي عارف ـ موظف بالمساحة .

١٠ . نونو الخطاط ـ خطاط .

١١ . المعلم عباس شفة ـ يتاجـــر بزوجته .

١٢ . المعلم زفتة ـ صاحب مقهى .

✱ زقـــاق المـــدق :

١ . عباس الحلو ـ حلاق ، ثم عمل مع الانجليز .

٢ . حميدة ـ لا عمل لها ثم ارتيست .

٣ . سليم علوان ـ صاحب وكالة عطارة بالجملة و التجزئة .

٤ . المعلم كرشة ـ صاحب مقهى .

٥ . حسين كرشة ـ يعمل مع الانجليز ـ ٣٠ قرشا في اليوم .

٦ . رضوان الحسيني ـ يملك بيتا و بعض الأرض.

٧ . السيد درويش ـ ولي من أولياء الله . كان مدرسا في وزارة الأوقاف ثم صار كاتبا ثم ترك الوظيفة .

٨ . فرج ابراهيم ـ قواد ـ ناظر مدرسة تخرج أرتيستات.

٩ . سنية عفيفي ـ تملك بيتا .

١٠ . زوجة المعلم كرشة ـ لا عمل لها خارج البيت.

١١ . زيطة صانع العاهات.

١٢ . الدكتور بوشي ـ طبيب أسنان بلدي .

١٣ . جعدة و زوجته ـ يملكان فرنا .

١٤ . عم كامل ـ بائع البسبوسة .

١٥ . أم حميدة ـ خاطبة .

بداية و نهاية :

١ . حسنين كامل ـ طالب ثانوي ثم ضابط ـ والده كان موظفا بوزارة المعارف خدم حوالي ٣٠ عاما بمرتب قدره ١٧ جنيها و معاش لورثته قدره ٥ جنيهات.

٢ . حسين كامل ـ طالب ثانوي ثم كاتب بمدرسة طنطا الثانوية ـ مرتب ٧ جنيهات.

٣ . حسن كامل ـ تجارة مخدرات و غناء .

٤ . نفيسة كامل ـ علم قليل ـ خياطة .

٥ . الأم ـ عمل داخل البيت.

٦ . فريد افندي محمد ـ موظف درجة سادسة ـ ١٨ جنيها .

٧ . بهية ابنته ـ لا تتعلم و لا تعمل .

٨ . احمد بك يسري ـ مفتش غني .

٩ . حسان حسان ـ ناظر مدرسة .

١٠ . علي صبري ـ مفني .

السـراب :

١ . كامل رؤبة لاظ ـ موظف بادارة المخازن بديوان الأوقاف ـ مرتب ٧½ جنيهـا .

٢ . والدته ـ لا عمل لها خارج البيت.

٣ . والده ـ لا عمل له ـ من الأعيان .

٤ . رباب جبر ـ مدرسة بروضة أطفال العباسية .

٥ . الاميرالاي عبد الله بك حسن ـ ضابط متقاعد .

٦ . جبر بك السيد ـ مفتش ري بالأشغال .

٧ . أمين رضا ـ طبيب.

الثلاثيـة :

أ ـ بين القصرين :

١ . احمد عبد الجواد ـ تاجر صغير ـ تعليم دون الابتدائي .

٢ . فهمي عبد الجواد ـ طالب حقوق .

٣ . ياسين عبد الجواد ـ كاتب بمدرسة النحاسين ـ تعليم ابتدائي .

٤ . أمينة ـ لا علم ولا عمل خارج البيت.

٥ . عائشة ـ لا علم ولا عمل خارج البيت.

٦ . خديجة ـ لا علم ولا عمل خارج البيت

٧ . كمال عبد الجواد ـ طالب صغير .

٨ . محمد عفت ـ تاجـر .

٩ . ابراهيم الفار ــ تاجر.

١٠ . علي عبد الرحيم ــ تاجر.

١١ . ابراهيم و خليل شوكت ــ من أسرة تركية الأصل كانت واسعة الثروة.
لا يعملان . دخل كل منهما ٣٠ جنيها شهريا .

١٢ . زينب بنت محمد عفت وعروس ياسين عبد الجواد ــ لا عمل لها .

١٣ . متولي عبد الصمد ــ من أولياء الله .

ب ــ قصر الشوق:

١ . كمال عبد الجواد ــ طالب جامعي ــ دار المعلمين.

٢ . سائر شخصيات بين القصرين فيما عدا فهمي عبد الجواد .

٣ . عايدة شداد ــ طالبة ــ ابنة عبد الحميد شداد المضارب بالبورصة.

٤ . حسين شداد ــ طالب جامعي .

٥ . حسن سليم ــ طالب جامعي ــ ابوه مستشار بمحكمة الاستئناف.

٦ . اسماعيل لطيف ــ طالب جامعي .

٧ . فؤاد الحمزاوي ــ طالب جامعي ، والده يعمل في دكان احمد عبد الجواد .

ج ــ السكرية:

١ . أحمد شوكت ــ طالب جامعي .

٢ . عبد المنعم شوكت ــ طالب جامعي .

٣ . كمال عبد الجواد ــ مدرس ابتدائي و كاتب.

٤ . رضوان ياسين ــ طالب جامعي ثم سكرتير الوزير.

٥ . رياض قلدس ــ مترجم بوزارة المعارف و كاتب.

٦ . فؤاد الحمزاوي ــ مساعد نيابة ، ثم وكيل نيابة .
٧ . سوسن حماد ــ محررة في مجلة . ابنة عامل .
٨ . حلمي عزت ــ طالب جامعي .
٩ . عبد الرحيم باشا عيسى ــ وزير .
١٠ . علوية ــ طالبة جامعية .
١١ . ابراهيم رزق ــ محرر في مجلة .
١٢ . ياسين واحمد عبد الجواد ، أمينة ، ابراهيم شوكت ، خديجة ، عائشة ، نعيمة ابنة عائشة (ثقافة ابتدائية) .

* كذلك قد يكون من المفيد أن نعرض هذه القصص مشيرين بشكل خاص الى انتماء شخصياتها الرئيسية الطبقي ، و مواقعها على السلم الاجتماعي ، لكي تصبح الأسس التي ستبنى عليها الاستنتاجات حول تركيب الطبقة الوسطى في قصص محفوظ أكثر صلابة .

١ . القاهرة الجديدة : الشخصية الرئيسية في هذه القصة طالب جامعي يدعى محجوب عبد الدائم . وهو ابن لكاتب بشركة ألبان يونانية له من الخدمة خمسة وعشرون عاما و مرتبه ثمانية جنيهات . فهو اذا من الطبقة الوسطى الصغيرة . و لكن طموح محجوب و تطلعه الطبقي يؤكدان سعيه الى تجاوز طبقته ، و قد نجح في ذلك حوالي منتصف القصة عندما عين سكرتيرا للوزير مقابل قبوله الزواج من عشيقة ذلك الوزير .

و في القصة طالبان آخران يلعبان دورا مهما فيها هما علي طه و مأمون رضوان . ووالد الأول مترجم ببلدية الأسكندرية ذو مرتب ضخم ، و والد الثاني مدرس بالمعاهد الدينية ذو مرتب حسن . و هكذا فانهما في مرتبة اجتماعية أعلى من مرتبة محجوب . و لكنهما لا يتميزان مثله بالتطلع الطبقي الى أعلى . اذ كان لهما من ايمانهما ــ الأول بالعلم و الاشتراكية و الثاني بالاسلام ــ ما يدفعهما الى حل جذري للمشكلة الطبقية .

و في القصة أيضا موظف ناجح ضمن له انحرافه السياسي و الخلقي أن يعين سكرتيرا للوزير بعد تخرجه من الجامعة. ثم أصبح فيما بعد مديرا لمكتبه و صار معدودا من الطبقة العليا.

أما الفتاة الوحيدة في القصة فهي احسان شحاتة الطالبة و ابنة عم شحاتة صاحب دكان السجائر قرب الجامعة. و هي بطموحها الذي أدى بها الى ممارسة الدعارة يمكن أن تعتبر من الطبقة الوسطى الصغيرة برغم سوء حال عائلتها الكبيرة.

و في القصة أخيرا مهندس ثري و طالب صحفي لا يلعبان دورا هاما.

٢. خان الخليلي : الشخصية الرئيسية في هذه القصة موظف صغير بوزارة الأشغال (درجة ثامنة) يحمل شهادة البكالوريا اسمه أحمد عاكف. وتتجلى في هذه الشخصية حساسية أبناء الطبقة الوسطى الشديدة و الأزمات النفسية التي يعانون منها عندما تضطرهم الظروف الى التوقف عند حد معين على السلم الاجتماعي أقل مما يطمحون اليه. ووالد أحمد موظف صغير محال على المعاش بمرتب قدره ستة جنيهات. أما أخوه رشدي الذي يحمل شهادة بكالوريوس في التجارة فيعمل موظفا في أحد البنوك. و لا يبدو أن المشكلة الطبقية تشغل رشدي كثيرا، لأن السكر و القمار و العشق لا تترك له مجالا للتفكير في ما عداها. و هكذا فهو لا يسهم في الارتفاع بأسرته من مستوى الطبقة الوسطى الصغيرة.

و في القصة عدد من الموظفين أبرزهم كمال أفندي خليل الموظف بالمساحة الذي يخبرنا المؤلف أنه "يعتبر من صغار الموظفين، و ممن يكافحون بعزيمة صادقة في ظروف دقيقة — للنهوض بأسرهم"[١]. و يلجأ هؤلاء الى الحشيش تناسيا لمشكلاتهم.

---

١. نجيب محفوظ، خان الخليلي (الطبعة السادسة؛ القاهرة: دار مصر للطباعة، لا ت)، ص ١٦٦.

وفيها محام ذو اتجاه يساري يدعى أحمد راشد لا نعلم الكثير عن وضعه الطبقي .
كما نقابل في القصة شخصيات تنتمي الى الطبقة الدنيا مثل نونو الخطاط والمعلم زفتة صاحب المقهى .

* ٣ . زقاق المدق : ليس في هذه القصة شخصية رئيسية واحدة . ولعل أبرز شخصياتها المنتمية الى الطبقة الوسطى سليم علوان التاجر الجيد الأحوال الذي يمكن أن يعد من أعالي هذه الطبقة من حيث ثروته على الأقل . وقد عبر عن ارتقائه الطبقي بعد ازدياد ثروته بانتقاله من الجمالية حيث كان يسكن وعائلته الى قصر منيف بالحلمية . كما فكر في ترشيح نفسه للنيابة . ولكن أحدا من ابنائه لم يشتغل بالتجارة .

ومن هذه الشخصيات ايضا رضوان الحسيني الرجل المتدين الذي يملك بيتاو بعض الأرض . ويبدو أن ما يحظى به من احترام الناس وتقديرهم ، وبالتالي المرتبة الاجتماعية الجيدة التي له عائدة في الدرجة الأولى الى تدينه وصلاحه .

وتلفت نظرنا في القصة شخصية طريفة هي السيد درويش الذي تحول الى ولي من أولياء الله بعد ان ترك وظيفته بوزارة الأوقاف على اثر انزاله من الدرجة السادسة الى الثامنة وانخفاض مرتبته الاجتماعية .

أما سائر شخصيات القصة فمن الطبقة السفلى . ولكن طموح حميدة فتاة الزقاق ، وسعي محبها وخاطبها عباس الحلو الى تحسين حاله وطموح حسين كرشة ابن المعلم كرشة صاحب مقهى الزقاق ، قد يغرينا بعدهم من الطبقة الوسطى الصغيرة .

* ٤ . بداية ونهاية : الشخصية الرئيسة في هذه القصة طالب ثانوي اسمه حسنين كامل . توفي والده في بداية القصة بعد أن كان موظفا بوزارة المعارف خدم

حوالي ثلاثين عاما بمرتب قدره سبعة عشر جنيها ، وترك معاشا لورثته يبلغ خمسة جنيهات. ويتميز حسنين بتطلع طبقي شديد . وقد أصبح في نهاية القصة ضابطا في الجيش. ولكن ذلك لم يكفل رفعه وعائلته من مستوى الطبقة الوسطى الصغيرة لأن نهايته كانت سريعة ومفجعة. وحسين أخوه كان طالبا ثانويا ثم صار ،بعد حصوله على البكالوريا ،كاتبا بمدرسة طنطا الثانوية بمرتب يبلغ سبعة جنيهات. وبرغم توقفه عن متابعة دراسته نرى أنه كان أكثر وعيا وتفهما لمشكلته ومشكلة عائلته من أخيه حسنين. أما الأخ الثالث حسن فكان يتاجر بالمخدرات ويغني ويمارك ،ولا نرى عنده طموح أبناء الطبقة الوسطى . واضطرت الأخت الوحيدة نفيسة لأن تعمل خياطة بعد وفاة الوالد .

وفي القصة مفتش كبير من الطبقة العليا كان صديقا للوالد ، وموظف حكومي متوسط هو فريد افندي محمد تربطه وعائلته بعائلة كامل علي اكثر من رابطة.

٥ . السراب: الشخصية الرئيسية في هذه القصة موظف صغير مرتبه سبعة جنيهات ونصف يحمل البكالوريا اسمه كامل رؤبة لاظ. ويشغله تعلقه بأمه وخجله الشديد وعقده وما ورثه من مال عن جده وأبيه عن التطلع الى أعلى ،او القلق الشديد من الهبوط الى أسفل . جده ضابط متقاعد وأبوه من الأعيان . تزوج مدرسة متخرجة من دار المعلمين ابنة مفتش ري بالأشغال . وفي القصة طبيب يدعى أمين رضا قريب عائلة زوجة كامل .

٦ . الثلاثية: تقوم بدور البطولة في هذه القصة عائلة أحمد عبد الجواد التاجر الصغير المكتفي والذي لا يكاد يبلغ من حيث دخله أواسط الطبقة الوسطى ولكن معارفه وصداقاته وما يحظى به من احترام وتقدير تجعله يجاوز تلك المرتبة . تلقى ابنه كمال ثقافة جامعية. ولكن اختياره لدار المعلمين أدى به لأن ينتهي مدرسا

ابتدائيا وكاتبا مفكرا لا يحظى بكثير من التقدير في بيئته ، فلم يتعدّ مرتبة والده الاجتماعية وربما لم يصلها . ولم يتلقّ ابنه الآخرياسين سوى ثقافة ابتدائية ، فعمل كاتبا ، وكانت مرتبته الاجتماعية أقل من مرتبة أبيه . وتشغل ياسين قضية المعاش، ولكنه لا يبدو شديد الاهتمام بوضعه الطبقي . اما الابن الثالث فهمي فكان طالب حقوق ، ولكن القدر لم يمهله فقتل في مطلع شبابه .

ونقابل في القصة أصدقاء الأب من التجار . وأصدقاء كمال من الطلبة المنتمين الى الطبقة العليا . كما تتزوج ابنتا احمد اللتان لم تتلقيا أية ثقافة من رجلين من آل شوكت الأسرة الارستقراطية سابقا والتي تعدّ الآن متوسطة الحال من حيث الدخل ، ولكنها تحافظ على عادات الأرستقراطية وتقاليدها .

أما أحفاد أحمد عبد الجواد فطالبان حزبيان ، وثالث شاذ جنسيا ضمن له شذوذه أن يعين سكرتيرا للوزير عقب تخرجه من الجامعة .

* ويلفت نظرنا في القصة فؤاد الحمزاوي الذي كان والده يعمل في دكان أحمد عبد الجواد . وقد دخل فؤاد الحقوق ، وصار بعد تخرجه مساعد نيابة ثم وكيل نيابة ، فتعدى طبقة والده السفلى الى أعالي الطبقة الوسطى .

ويتضح مما تقدم أن الأدوار الرئيسية في قصص محفوظ مقصورة على أبناء الطبقة الوسطى ولا سيما الصغيرة منها . ويمكننا تصنيف هؤلاء الى الفئات التالية :

١ . طلاب : محجوب عبد الدائم ، مأمون رضوان ، علي طه ، حسنين كامل حسين كامل ، كمال عبد الجواد ، فهمي عبد الجواد ، احمد شوكت ، عبد المنعم شوكت .

٢ . موظفو الحكومة : احمد عاكف ، حسين كامل ، كامل رؤبة لاظ ، كمال عبد الجواد ، ياسين عبد الجواد .

٣ . تجـــار: احمد عبد الجواد ،سليم علوان .

٤ . موظفو شركات غير حكومية: رشدي عاكف.

كذلك فان غالبية شخصيات هذه القصص الثانوية هم من الطبقة الوسطى الصغيرة. و ينتمي معظمهم الى الفئات الأربع السابقة و بينهم عدد ضئيل من أصحاب المهن الحرة (طبيب،و محام، و صحفي ،و كاتب) . ولا نرى في هذه القصص أي أثر لرجال الصناعة. و يتفق اهتمام محفوظ بمشكلات قطاعات التجار و صغار الموظفين و الطلاب مع ما ذكره كل من بيرغر و الساعاتي من أن هذه الفئات كانت تشكل نسبة كبيرة من الطبقة الوسطـــى المصرية. كذلك تشكل هذه الفئات العمود الفقري لما يسميه راشد البراوي الطبقـــة الوسطى الجديدة.

* و تلعب الطبقة الدنيا دورا شبه رئيسي في زقاق المدق فقط. أما الطبقة العليا فأدوارها ثانوية فقط.

* و يبدو من قصص محفوظ أن الوظيفة الحكومية كانت تحظى بالتقدير و الاحترام في ذلك الدور الذي تتحدث عنه. و يخبرنا المؤلف أن أحمد عبد الجواد و أصدقاءه مـن التجار كانوا يتطلعون الى الموظفين و ذوي الألقاب بنظرة ملؤها الاكبار[1] . و نرى احمد هذا يحث ابنه كمال على السعي وراء الوظيفة نظرا لما تنطوي عليه من مركـــز و نفـــوذ اجتماعيين ". . . ألا تدري ما هي النيابة و ما هو القضاء؟ هذه وظائف تهز الأرض هزا و في وسعك أن تتبوأ واحدة منها . . ."[2] . و لم يعدّ عبد الجواد أيا من أبنائه ليحـل محله في متجره لأنه "كان في الحق يكبر الوظيفة و الموظفين و يدرك خطرهم و منزلتهـم

---

١ . نجيب محفوظ، بين القصرين (القاهرة: دار مصر للطباعة ،لا ت) ، ص ٣٧٦ .

٢ . نجيب محفوظ، قصر الشوق (القاهرة: دار مصر للطباعة ، لا ت)، ص ٦٢ .

في الحياة العامة كما لمس ذلك بنفسه . . . كذلك لم يكن يخفى عليه أن التجارة لا تحظى بربع ما تحظى به الوظيفة من التقدير في نظر الناس وان أخلفت أضعافها من المال . . "[١] . *ويخبرنا المؤلف أيضا أن أولاد سليم علوان أعرضوا عن التجارة "وشقوا سبيلهم الى الحقوق والطب، فهم قاض ومحام بأقلام القضايا وطبيب بقصر العيني"[٢]. أي أنهم اختاروا جميعا العمل بالحكومة.) كذلك نلاحظ أن تسلم فؤاد الحمزاوي لوظيفة مساعد نيابة ثم وكيل نيابة كان كفيلا برفع مرتبته الاجتماعية كثيرا . وأن تسلم سالم الاخشيدي لوظيفة سكرتير الوزير ثم مساعده جعله واحدا من أبناء الطبقة الارستقراطية العليا . وتعود أهمية الوظيفة في المجتمعات النامية بنوع خاص الى وجود علاقة وثيقة في هذه البلدان بين السلطتين السياسية والاقتصادية . وقد أوضح بيرغز هذه العلاقة في كتابه عن البيرقراطية في مصر، فأشار الى أن قوة الطبقات الاقتصادية العليا في مصر لم تكن قوة خاصة، بل مستقاة من علاقة هذه الطبقات بأصحاب السلطة السياسية . ذلك ان الحكومة هي المصدر الرئيسي لأية قوة اجتماعية منظمة وليس لأية طبقة القدرة على ممارسة أية سلطة خارجها[٣] .

* وهكذا يمكننا اعتبار درجة الوظيفة الحكومية المقياس الأول الذي كان يحدد طبقة الفرد الاجتماعية في ذلك الدور، وأن الاقتراب من مركز السلطة السياسية أو الابتعاد عنه كان يلعب الدور الرئيسي في ذلك التحديد .

---

١ . نفسه، ص ٦٣ .

٢ . نجيب محفوظ، زقاق المدق (القاهرة: دار مصر للطباعة، لا ت) ص ٦٩ .

٣ . Morroe Berger, Bureaucracy and Society in Modern Egypt (Princeton: Princeton University Press, 1957) P. 15.

أما المقياس الثاني فهو الثروة التي كانت تمكن الفرد من شراء الألقـــاب أو المقعد النيابي ، وتقربه بالتالي من مركز السلطة السياسية. وهكذا يقترح أحد أبناء سليم علوان على أبيه أن يسعى للحصول على مرتبة البكوية : "كيف لا تكون بيكا والبلد ملأى ببيكوات وباشوات دونك ما لا وجاها ومقاما"[١]. كما أن ثروة علوان هذا أتاحت له أن يفكر بترشيح نفسه للنيابة. وثروة عبد الحميد شداد المضارب بالبورصة في الثلاثية مكنته من التقرب من ذوي السلطان.

والمقياس الثالث هو العلم الذي يؤدي الى الوظيفة الحكومية الجيدة والذي أتاح لفؤاد الحمزاوي في الثلاثية أن يصبح وكيل نيابة.

وعلى اساس هذه المقاييس يمكننا تقسيم شخصيات محفوظ المختلفة الى خمس طبقات.

١. الطبقة العليا : وتضم أحمد افندي حمديس المهندس السابق فــــي القاهرة الجديدة. وسالم الاخشيدي سكرتير الوزير في القصة ذاتها. واحمد بــك يسري المفتش الثري في بداية ونهاية. وعبد الحميد شداد المضارب بالبورصة في الثلاثية. ومحجوب عبد الدائم بعد تعيينه سكرتيرا للوزير. ورضوان ياســـــين بعد تعيينه سكرتيرا للوزيـــر.

٢. الطبقة الوسطى العليا : وتضم سليم علوان التاجر الثري في زقاق المدق، وفؤاد الحمزاوي وكيل النيابة في الثلاثية.

٣. اواسط الطبقة الوسطى : وتضم احمد عبد الجواد التاجر المتوسط الحال في الثلاثية، وآل شوكت ذوي الدخل المتوسط في القصة ذاتها. وعلى طه ومأمون رضوان الطالبين في القاهرة الجديدة. ورضوان الحسيني الرجل التقي الذي يملك بيتا وبعض الأرض في زقاق المدق.

---

١. زقاق المدق، ص ٧١.

٤ . الطبقة الوسطى الصغيرة : وتضم صغار الموظفين : أحمد عاكف، ورشدي عاكف، وكمال افندي خليل ، وسيد افندي عارف، وسليمان عتة في خان الخليلي . والسيد درويش قبل أن يترك الوظيفة في زقاق المدق . وحسين كامل بعد توظفه ، وفريد افندي محمد ، في بداية ونهاية . وكامل رؤبة لاظ، وجبر بك السيد ، ورباب جبر، في السراب، وكمال عبد الجواد بعد توظفه ، وياسين عبد الجواد ، ورياض قلدس، وسوسن حماد المحررة ،في الثلاثية . والطلاب أمثال : محجوب عبد الدائم، واحسان شحاته ، في القاهرة الجديدة ، وحسنين كامل ، وحسين كامل في بداية ونهاية . وكمال عبد الجواد قبل توظفه ، وفهمي عبد الجواد ،في الثلاثية . كما يمكننا أن نضع عباس الحلو وحسين كرشة بعد عملهما مع الانكليز في هذه الطبقة .

٥ . الطبقة السفلى : وتضم أمثال نونو الخطاط، والمعلم زفتة ، في خان الخليلي . والمعلم كرشة ، والسيد درويش بعد تركه الوظيفة ، وجعدة الفران ، وزيطة صانع العاهات، وعم كامل بائع البسبوسة ، في زقاق المدق .

ويؤكد هذا التقسيم ما ذهبنا اليه سابقا من أن شخصيات محفوظ الرئيسية تنتمي الى الطبقة الوسطى ولا سيما الصغيرة منها . وهكذا يمكننا ترتيب هذه الطبقات من حيث بروز دورها في قصص محفوظ الواقعية كما يلي :

١ . الطبقة الوسطى الصغيرة .
٢ . اواسط الطبقة الوسطى .
٣ . الطبقة الوسطى العليا .
٤ . الطبقة السفلى .
٥ . الطبقة العليا .

وبعد ،فقد حاولت في هذا الفصل أن أعرض تطور الطبقة الوسطى المصرية منذ نشأتها وحتى الاربعينات من هذا القرن ، مشيرا الى تركيبها في فترات تطورها المختلفة ، ومعتمدا في ذلك كله على المراجع القليلة التي تعرضت لهذا الموضوع. وقد ذهب محمد أنيس الى أنه وجدت في عهد المماليك طبقة وسطى مكونة من المشايخ ورجال الدين من جهة ومن التجار والحرفيين من جهة أخرى ، وأن محمد علي أطاح بهذه القوة الناهضة التي ساعدته على تثبيت حكمه ، ولكن اصلاحاته أدت الى بروز طبقة وسطى جديدة نشأت من الزراعة وتضخمت قوتها في عهد الاحتلال الانكليزي . ويؤكد مختلف الباحثين أن قطاعات الطبقة الوسطى الأخرى مثل الموظفين والتجار والصناع لم تبرز على المسرح بشكل قوي الا بعد ثورة ١٩١٩ والتطورات التي أعقبتها وحدت من منافسة الأجانب لهذه القطاعات. ويذهب كل من حسن الساعاتي ومورو بيرغر الى أن الطبقة الوسطى المصرية القاطنة في المدن كانت تشكل في الأربعينات من هذا القرن حوالي ٣٪ من مجموع السكان . وأن حوالي نصف هذه الطبقة كانوا من صغار التجار. كما يذهب راشد البراوي الى أن الموظفين والطلاب كانوا يشكلون نسبة هامة من هذه الطبقة.

ثم انتقلت الى تبيان تركيب هذه الطبقة في قصص محفوظ فرأيت أنها تلعب الأدوار الرئيسية في تلك القصص وأن فئات ثلاث منها تتقاسم هذه الأدوار هي : التجار وصغار الموظفين والطلاب، وتنتمي غالبية هؤلاء الى أسفل هذه الطبقة. وقد اتفق اهتمام محفوظ بهذه الفئات مع ما ذكره الباحثون من أنها كانت تشكل قسما هاما من الطبقة الوسطى المصرية. كما وجدت أن المقاييس التي تحدد مرتبة الفرد الاجتماعية هي : درجة الوظيفة الحكومية والثروة والعلم. وقد قسمت شخصيات محفوظ المختلفة الى خمس طبقات استنادا الى هذه المقاييس.

الفصـل الثــانـي

المشكـــــــلات الاجتمــاعيـة

يـرى شارل عيساوي أن المجتمع المصري كان ، قبل الحرب الأخيرة ،أشبه ما يكـون بهرم واقف على رأسه . ولكنه استمر في وضعه المقلقل هذا طويلا بحيـــث صار مطمورا في الرمل ، وهكذا تمتع بنوع من الثبات . كما أن التفحص الأدق كـان يري أن ذلك الهرم بقي في وضعه ذاك بفعل دعامات قوية ، وأن رأسه قد تماســك بفعل مادة شادة قوية . وكان ملاك الأرض يقفون على رأس البناء و يمتلكون جـــزءا كبيرا من ثروة البلد ، و يتمتعون بمركز سياسي كبـير . ولم تتحدّ هذه السيطـرة سوى جماعتين كانتا في وضع يسمح لهما بذلك هما طبقة المهنيين و طبقة الصناعيين والتجار . ولا تأتي سوى أقلية من أعالي طبقة المهنيين من طبقة ملاك الأراضـي ، أما الباقون فيأتون من البرجوازية الصغيرة على الأغلب . و يسارع مثل هؤلاء الـى ابراز تمتعهم بالبحبوحة عن طريق شراء قطعة أرض او عزبة ، و مصاهرة طبقة الملاك والاختلاط بها اجتماعيا و سياسيا . كذلك كانت طبقة الصناعيين والتجار عاجزة عن لعب دور نشيط و مستقل بسبب سيطرة الأجانب من جهة ، و خشيتها من أن تؤدي أية حركة اصلاحية تبدأ بها الى مضاعفات اجتماعية عنيفة ، و ميل الملاك المـتزايـد الى تشغيـل أموالهم في المشروعات الصناعية و غيرها من جهة أخـرى . و يضيـف عيساوي أنه كانت تحمي طبقة الملاك أربع فئات اجتماعية قوية هي الجيش ذو الـــولاء التام للنظام القائم آنذاك ، و قوة بوليس ممتازة لا شك بولائها ، و بيروقراطية كبـيرة تتسع بسرعة و تتمتع باعتبار اجتماعي . وأخيرا العلماء المنتشرون في المدن و القرى المصرية يمارسون نفوذا عظيما بطريقة مباشرة أو من خلال الطرق الدينية ، ولا يملكون أية رغبة في تغيير النظام القائم . أما القوة الشادة للبناء فكانت النفوذ العظيـــم

و الشعبية الكبيرة للملكية التي كانت تشكل احدى القوى الأكثر محافظـة في مصر[١] .
و مـع أن المجتمع المصري اتسم بالمرونة و التجانس التراثي بين سائر الطبقات كما يقول
عيسا وي[٢] ، الا أن البرجوازية الصغيرة لم تكن في وضع يسمح لها بالتحرك اجتماعيـا
نحو تحسين أوضاعها بسبب سيطرة طبقة الملاك و من تحالف معها ، و الفوارق الشاسعة
في مستوى المعيشة بين هذه الطبقة و الطبقات الصغيرة[٣] .

و يشير صفران الى الاثر الاجتماعي للهجرة المتزايدة من القرى الى المـدن
في فترة ما بين الحربين و ما كانت تنطوي عليه من الاجتثاث الاجتماعي و النفسـي
لأقسام كبيرة من السكان بابتعادها عن ضوابط المجتمع القروي المحكـم النسج . و هكذا
حل السعي وراء اللذائذ و مغريات المدينة و الوسائل الموصلة اليها محل القيم فـي
غياب الحياة الجماعية و القيود الخلقية و الاجتماعية . و صارت الخيبة التي يلاقيهـا
ذلك السعي مصدر تذمر خطير . كما يتحدث عن اخفاق نظام التعليم في غـرس

---

١ . Issawi, Egypt at Mid-Century, PP. 258-260.

٢ . Charles Issawi, Egypt: An Economic and Social Analysis (London: Oxford University Press, 1947), P. 147.

٣ . يرى ناداف صفران أنه "لا يمنى تقريبا لتقسيم المجتمع المصري الى فئات متعددة من حيث الصراعات الأساسية للمصالح الاجتماعية ـ الاقتصادية و القوى المحددة للسياسة الاجتماعية ـ الاقتصادية . و هكذا فان التقسيم الوحيد المناسب في هذا المجال هو ذلك الواقع بين مصالح الجماعات صاحبة الامتيازات من جهة و المصالح الجديدة لجماهير الشعب غير المتمتعة بالامتيازات من جهة أخرى".

Egypt in Search of Political Community (Cambridge: Harvard University Press, 1961), P. 194.

مبادئ مرشدة للسلوك الشخصي ، وكيف أن ذلك ترك الأجيال الطالعة من الطبقات الوسطى في فراغ خلقي وروحي ملأته بالانتهازية والسعي المتهور وراء الملذات بعد اهتزاز السلطة الأبوية وضعف السلطة الدينية ، وتقوض سلطة المجتمع نتيجة تغيير التركيب الاجتماعي [١] .

* وهكذا فقد تميز الوضع الاجتماعي في مصر في الفترة التي تناولها محفوظ في قصصه الواقعية بالأمور التالية :

١ . تفاوت شديد بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا ، وسيطرة طبقة الملاك .

٢ . مرونة اجتماعية تتيح للفرد أن يتخطى طبقته الى طبقة أعلى ، ولكن المجال لم يكن واسعا أمام البرجوازية الصغيرة للافادة من هذا الوضع بسبب أحوالها المعيشية السيئة .

٣ . قلق اجتماعي نتيجة الهجرة الى المدن ، وعجز نظام التعليم والاصطدام بالحضارة الغربية ذات القيم الجديدة على المجتمع المصري ، وتغير التركيب الاجتماعي .

فما هي انعكاسات ذلك الوضع في قصص محفوظ وما هو تأثيره على الطبقة الوسطى بالذات كما يبدو في تلك القصص؟

---

١ . نفسه ، ص ١٨٢ و ٣٠٨ .

قابلية التحرك الاجتماعي Social Mobility ـ العوائق و الحلول

* لعل أهم ما يميز الطبقة الوسطى عن غيرها من طبقات المجتمع هو عدم رضاها بمركزها الاجتماعي ، و سعيها الدائب من جهة للصعود الى طبقة أعلى ، و خوفها ، من جهة أخرى ، من السقوط الى طبقة أدنى ، و ما ينطوي عليه ذلك كله من قلق و حساسية طبقية. فالطبقة العليا لا يقلقها الصعود لأنها تقف في أعلى السلم الطبقي ، كما أن الطبقة السفلى تكون عادة راضية بقسمتها أو غير واعية لوضعها الاجتماعي . و هكذا فاننا نرى باحثا هو هنري غريسون يعتبر أن الخاصية الأساسية التي تجعل انسانا ما عضوا في الطبقة الوسطى انما هي تصميم ذلك الانسان على التحرك الى وضع أفضل في السلم الاجتماعي و ليس مرتبته الاجتماعية الفعلية[١]. كذلك يرى باحث آخر هو ألينور باركر وجود رابطة وثيقة بين طريقة حياة البرجوازية ككل و الاختلافات و التغيرات داخلها ، و بين مواقف البرجوازية من قابلية التحرك الاجتماعي ، و أن جميع البرجوازيين تقريبا سعوا وراء رموز حياة النبلاء ، و نحو ترك طريقة حياتهم البرجوازية و طرح السمة البرجوازية جانبا[٢].

و قضية التحرك الاجتماعي هي المشكلة الأساسية التي تواجه أبطال قصص محفوظ. و هي تتخذ أشكالا مختلفة عندهم ، كما أنهم يواجهون آثارها بطرق متعددة. و يشير الكاتب الى أهم العوائق التي كانت تحول بين أبناء الطبقة الوسطى و بين تحسين أحوالهم و الارتقاء اجتماعيا في ذلك الدور الذي تتحدث عنه هذه القصص.

---

١. Henry Grayson, The Crises of the Middle Classes (New York: Rinebart and Comp. Incorporation, 1955), P. XI-Introduction.

٢. Elinor Barber, The Bourgeoisie in 18th C. France (Princeton: Princeton University Press, 1955), P. 98.

وأول هذه العوائق الفقر الذي حال دون اتمام كل من أحمد عاكف في خان الخليلي وحسين كامل في بداية ونهاية لدراستهما. وثانيها الوساطات واستئثار طبقة واحدة بكل مناصب الحكومة. يقول محجوب عبد الدائم في القاهرة الجديدة،

> ... والحكومة أسرة واحدة. الوزراء يعينون الوكلاء من الاقارب. الوكلاء يختارون المديرين من الأقارب: والمديرون ينتخبون الرؤساء من الأقارب. الرؤساء يختارون الموظفين من الأقارب. حتى الخدم يختارون من خدم البيوت الكبيرة. فالحكومة أسرة واحدة أو طبقة واحدة متعددة الأسر...[١]

ونسمع فؤاد الحمزاوي الذي أتاح له تعليمه أن يصبح مساعد نيابة يشكو مع ذلك من الوساطات "... في الأسبوع الماضي عين مستشارا رجل لم يبلغ الأربعين من عمره، وقد أخدم القضاء عمري مجتهدا ناصبا دون أن أظفر بهذا المركز السامي"[٢]. كما نسمع حسين كامل في بداية ونهاية يشكو من الفوارق الطاغية بين الموظفين[٣]. ويبدو أن هذه العوائق كانت تقف بشكل جدي ومؤثر في وجه أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة. لذلك فان تجاوزهم لها لم يتأتّ الا عن طرق ملتوية كالانحراف السياسي والخلقي (سالم الاخشيدي) والشذوذ الجنسي (رضوان ياسين). أما الحلول التي لجأوا اليها لمواجهة هذه العوائق فيمكن تصنيفها الى نوعين أساسيين: حلول فردية، وحلول اجتماعية.

---

١. نجيب محفوظ، القاهرة الجديدة (القاهرة: دار مصر للطباعة، لات)، ص ٤٦.

٢. نجيب محفوظ، السكرية (القاهرة: دار مصر للطباعة، لات)، ص ١١٨.

٣. نجيب محفوظ، بداية ونهاية (القاهرة: دار مصر للطباعة، لات)، ص ٣٠٦.

١ . الحلول الفردية : وهي حلول تلجأ اليها شخصيات محفوظ الرئيسية . وتشمل اللجوء الى الوساطات ومحاولة الزواج من الطبقة العليا ، والتقرب الى تلك الطبقة ، والمعاناة النفسية من المشكلة دون القيام بعمل ايجابي في سبيل ايجاد حل جذري للمشكلة الطبقية من الأساس. وقد يكون من المفيد في توضيح طبيعة هذه الحلول أن نتناول كل شخصية رئيسية من قصص محفوظ على حدة ، ونبين الطريقة التي اتبعتها في مواجهة معوقات التحرك الاجتماعي ومظاهر الظلم الاجتماعي التي عانت منها .

أ ـ محجوب عبد الدائم[1] بطل القاهرة الجديدة : طالب فقير يدرس في القاهرة بعيدا عن أسرته التي كانت تقيم في القناطر. كان لفقره "يرمق ملاذ القاهرة من بعيد ، ويسترق السمع الى أخبارها بنهم وألم"[2]. وتفاقمت مشكلة الفقر عندما مرض والده وأحيل على المعاش. ولكن محجوب الذي استطاع أن يتجاوز هذه المشكلة بقبوله العيش بجنيه واحد في الشهر حتى نيله الليسانس، كان يشكو من داء التطلع الطبقي الشديد . فقد جعلته مشاهدته للقصور على جانبي شارع رشاد باشا يقول لنفسه : "انه لو كان وريث أحد تلك القصور وأشقى أبوه ـ الباشا ـ على الموت لا نتظر

---

١ . هنالك مجال واسع للمقارنة بين محجوب وأوجين دي رستيناك بطل قصة الأب غوريو لبلزاك . فكلاهما فقيران يدرسان في المدينة بعيدا عن عائلتيهما اللتين تعلقان عليهما آمالا كبيرة . وكلاهما يتطلعان الى الطبقة العليا . وفي حين كانت واسطة محجوب للتقرب من تلك الطبقة سالم الاخشيدي ابن بلده ، كانت واسطة أوجين عمته السيدة دي مارسياك . وكلاهما يحضران حفلات ارستقراطية ويتمنيان لو كانا يعيشان حياة أفضل ويسعيان الى الوصول بأي ثمن ، ويتلقيان نصائح بطرح المبادئ جانبا في مجتمعين متشابهين من حيث اهتزاز القيم فيهما .

٢ . القاهرة الجديدة ، ص ٣٠ ـ ٣١ .

موته بفارغ الصبر. "[١] كذلك فانه يتمرد على الأقدار التي جعلته من هو"... تساءل وهو ينتف حاجبه الأيسر لماذا قدر له أن يولد في ذلك البيت؟ وماذا ورث عن والديه سوى الهوان والفقر والدمامة؟ أليس من الظلم أن يرسف في هذه الأغلال قبل أن يرى النور؟"[٢] وكون محجوب لنفسه فلسفة جمعها من حثالة الفلسفات الالحادية السائدة في الجامعة تقوم على طرح جميع القيم من دينية وأخلاقية واجتماعية جانبا، وركز اهتمامه على "نفسه التي يحبها أكثر من الدنيا جميعا، والتي يحبها وحدها دون الدنيا جميعا"[٣]، وجعل أسوته الحسنة ابليس الرمز الكامل للكمال المطلق والتمرد الحق والكبرياء الحق والطموح الحق والثورة على جميع المبادئ"[٤]. وكانت الطريقة التي اتبعها لتجاوز مشكلتي الفقر والاعتبار الاجتماعي بعد نيله الليسانس هي اللجوء الى الوساطات والاقتداء بسالم الاخشيدي ابن بلده ـ القناطر الذي "ظفر بوظيفته لأنه خائن، ورقي لأنه قواد"[٥] فاتخذه مثلا أعلى وراح يتبع تعليماته. وعندما حضر حفلة خيرية أرستقراطية بناء على توجيهاته وشاهد الاخشيدي وعظمته "تنهد محجوب

---

١. نفسه، ص ٣٧.

٢. نفسه، ص ٤١.

٣. يشير هالبرن في حديثه عن الطبقة الوسطى الجديدة في الشرق الأوسط الى وجود الانتهازي الهائم بحرية الذي لا يمثل الا نفسه، ولكنه يمثلها بطريقة ممتازة حيث لا ولاء له الا الولاء لفن البقاء بين صفوف هذه الطبقة. ويشير كذلك الى أن قصص ستندال تصف الانتهازي من هذا النوع بصورة جيدة في فترة من التاريخ الفرنسي حام فيها الشك حول المؤسسات والقيم وشابهت الفترة الحالية في تاريخ الشرق الأوسط.

The Politics of Social Change.., P. 53

٤. القاهرة الجديدة، ص ٣١.

٥. نفسه، ص ١١١.

ولو أمكنه ـ في تلك اللحظة ـ أن يصير عظيما ولو بجريمة ترمي به الى حبال المشنقة لما تردد !"١ وهكذا استحوذ التطلع الطبقي على مشاعره فقبل عرض الاخشيدي الزواج من عشيقة الوزير مقابل تعيينه سكرتيرا له. وكان قبوله بداية النهاية المأساوية.

ب ـ أحمد عاكف بطل خان الخليلي : موظف صغير بوزارة الأشغال اضطرته ظروف عائلته لأن ينقطع عن متابعة دراسته بعد نيله البكالوريا ، وأن يتوقف بالتالي عند حد منخفض نسبيا في السلم الاجتماعي. فأصيبت آماله بطعنة قتالة دامية ترنح من هولها " واجتاحته ثورة عنيفة جنونية حطمت كيانه ، فامتلأت نفسه مرارة وكمدا. ووقر في أعماقه أنه شهيد مضطهد ، وعبقرية مقبورة ، وضحية مظلومة للحظ العاثر... وتلوثت عواطفه بتمرد ثائر وسخط خبيث وكبرياء حنق ، واعتداد كاذب بمواهبه ، مما جعل حياته عذابا متصلا وشقاء مقيما"٢. وهكذا فهو "لا يحب ذكر وظيفته ارضاء لكبريائه ، فكانت لحظات التعارف لحظات تعذيب"٣ بالنسبة اليه.

ولجأ أحمد الى طرق ملتوية لتحقيق ذاته وتعدي مرتبته الاجتماعية. جرب العلم والاختراع والأدب والسحر دون أن يفلح في أي من هذه الحقول " وسقط تحت أنقاض المحاولات الفاشلة والآمال الخائبة والأوهام الضائعة! واطرد مجرى الأيام وتقدم به العمر وشعوره العميق بالظلم لا يسكن ولا يهدأ ، بل جعل يجد لألمه لذة غامضة"٤. وعاش حياة ـ مأساة بعد أن عجز أيضا عن النجاح في الحب،

---

١. نفسه ، ص ٩٥.
٢. خان الخليلي ، ص ١٤ و ١٥.
٣. نفسه ، ص ٤٢.
٤. نفسه ، ص ٢١.

ورفضت فتاة أحلامه انتظاره عشرة أعوام. فكفر بالحب وبالمرأة كما كفر بالدنيا جميعا [١].
ونراه عند ما وقع في الحب مرة ثانية يستسلم لأحلام شيطانية مرعبة: "... تمنى في صمته غارة جنونية تقذف القاهرة بالحمم فتدك مبانيها وتهلك بنيها فلا يبقى منها الا خرائب وآثار، وشخصان حيان لا غير، هو وهي!!"[٢] لأن هذه الأحلام ربما كانت أمله الوحيد في تحقيق شيء من ذاته اذا اكتشف أهل الفتاة أنه — كما يقول هو لنفسه — "(في الأربعين كاتب بمحفوظات الأشغال، درجة ثامنة — فهو من المنسيين في الحكومة كما أنه من المنسيين في الدنيا — مرتب خمسة عشر جنيها!)"[٣]

ج — حسنين بطل بداية ونهاية: يموت والده في بداية القصة وهو لا يزال طالبا ثانويا، فتسوء حال العائلة. وتظهر بذور التمرد على أوضاع العائلة الطبقية عند حسنين منذ البداية فهو — كما يخبرنا الكاتب — "كان حريصا على ألا تقع عين على القبر حفظا لكرامة الأسرة"[٤]. ونسمعه يقول لنفسه "... لا مقبرة ولا يحزنون. لماذا لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا؟"[٥] كما نسمعه يعلن "...لن تكون أختي خياطة، كلا، ولن أكون أخا لخياطة"[٦]. وهو يتساءل كمحجوب "— هل يثير موت رجل كأحمد بك حزنا في نفوس ورثته؟"[٧] ويرفض أن يستسلم للأقدار: "...ان من يستسلم للأقدار

---

١. نفسه، ص ٣٨.
٢. نفسه، ص ٩٦ — ١٠٠.
٣. نفسه، ص ١٤٦.
٤. بداية ونهاية، ص ١٤.
٥. نفسه
٦. نفسه، ص ٢٤.
٧. نفسه، ص ١٨١.

يشجعها على التمادي في طغيانها !"[١] " ويناقش ربه الحساب، متسائلا — فيما يشبه التحدي — عن أسرار حكمته التي جعلت من الدنيا ما هو كائن !"[٢]

وبعد تخرجه التحق حسنين بالحربية " مدفوعا بنفسه الظمأى الى السيادة والقوة والمظهر الخلاب"[٣] وتفاقم تطلعه الطبقي وحساسيته الشديدة الناتجة عن شعور بالنقص الاجتماعي عندما أصبح ضابطا، فترك خطيبته الأولى، وانتقل بعائلته الى حي جديد وسعى الى الزواج من كريمة أحمد بك يسري أملا في أن يبلغ طبقة والدها العالية،

> ... "ما أجمل أن أملك هذه الفيلا وأنام فوق هذه الفتاة". ليست شهوة فحسب ولكنها قوة وعزة. فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يديّ في تسليم مسبلة الجفون وكأن كل عضو من جسدها الساخن يهتف بي قائلا "سيدي ... هذه هي الحياة. اذا ركبتها ركبت طبقة بأسرها !"[٤]

ولكنه أخفق في سعيه، وتوالت المحن عليه، وانتهى منتحرا قبل أن يحقق أيا من آماله، وبعد أن عجز عن التخلص من ماضيه،

> "...طالما أحببت أن أمحو الماضي، ولكن الماضي التهم الحاضر، ولم يكن الماضي المخيف الا نفسي. لماذا لا أواصل الحياة بهذه الأعباء؟ لا أستطيع. كان ينبغي أن أحب الحياة الى النهاية، ومهما يكن من أمر، ولكن في طبيعتنا خطأ جوهري لا أدريه. لقد قضي عليه ..."[٥]

---

١. نفسه، ص ٣٠.

٢. نفسه، ص ٢٥٧.

٣. نفسه، ص ٣٣٤.

٤. نفسه، ص ٣٤٥.

٥. نفسه، ص ٣٨١.

د ـ كمال عبد الجواد ـ بطل الثلاثية: لا تشغل كمال مشكلة التحرك الاجتماعي الى طبقة أعلى في البداية على الأقل. فهو قد اختار دار المعلمين دون الحقوق ـ برغم تحذيرات والده من أن مهنة التعليم مهنة "يختلط فيها الأفندي بالمجاور، خالية من كل معاني العظمة والجلال"[1] ـ سعيا وراء ثقافة الفكر وأقنع نفسه بأنه لا يريد الزواج من عايدة شداد المنتمية الى طبقة أعلى من طبقته، لأنه يسعى الى الحب الأبدي. ولكن حلول كمال المثالية هذه لمشكلة الفوارق الطبقية لم تصمد كثيرا فنراه يكذب أمام أصدقائه الارستقراطيين معلنا أن أباه تاجر جملة بالبقالة[2]. ونسمعه يوصي ابن أخته أحمد "ـ ولكن ينبغي أن تعلم أن الحقوق تفتح لك مجالا من الحياة العملية الممتازة لا تستطيعه الآداب. سيكون مستقبلك اذا اخترت الآداب في التعليم وهو مهنة شاقة ولا جاه لها..."[3] كما أنه يقف موقف الشك والتردد من زواج أحمد هذا من سوسن حماد الفتاة المنتمية الى الطبقة العاملة مسايرة لما سماه بالواقع الاجتماعي[4]. وعندما يسمع بزواج بدور أخت عايدة التي تاق الى الزواج منها دون أن يفلح في اعلان رغبته نراه يتمنى أن يكون خطيبها من طبقة أدنى من طبقة المعلمين التي ينتمي هو اليها[5]. وكأنه قد ندم على اختياره طريق الفكر فنراه كلما أقبل على ادارة مجلة الفكر "ذكره موضعها الأرضي المظلم ورثاثة أثاثها بمكانة "الفكر" في بلده،

---

١ . قصر الشوق، ص ٥٥ .

٢ . نفسه، ص ٣٥٠ .

٣ . السكرية، ص ٢٩ .

٤ . نفسه، ص ٣٢١ .

٥ . نفسه، ص ٣٣٧ .

و بمكانته هو في مجتمعه . ."[1] فما وجد الا الخمرة ملاذا يخلصه من عذابه الناشيء من عجزه عن تحقيق ذاته في ظل المجتمع المريض،

> كل شيء يبدو مضحكا و لكن الخمر ستظل قبلة المحزون ، و تتغير الاوضاع فيملو فؤاد جميل الحمزاوي و يسفل كمال أحمد عبد الجواد ، و لكن الخمر ستظل بشاشة المكروب، ويوما يحمل كمال رضوان على كتفه ليدلله ثم يجيء يوم فيحمل رضوان كمال ليقيله من عثرته و لكن الخمر ستظل نجدة الملهوف. . .[2]

هذه الحلول الفردية التي كان يلجأ اليها أبطال قصص محفوظ و الحلول الأخرى المشابهة التي لجأت اليها بعض شخصياته الثانوية كانت كما لاحظنا تنتهي دائما الى طريق مسدود . وكأنما أراد الكاتب، باصراره على ايصالها الى تلك النهاية، أن يؤكد ادانته لها في الوقت الذي كان فيه يؤكد ايضا مسؤولية المجتمع الذي لم يكن يتيح للفرد أن يحقق ذاته و أن يعيش حياة كريمة و ذلك بسبب الفساد و سيطرة طبقة صغيرة على السلطة و استئثارها بالمناصب و بثروة البلد ، و تركها جماهير الشعب الواسعة تعاني من الفقر وعدم التكافوء في الفرص. وهكذا فان القضية ، كما يطرحها الكاتب، ليست فقط قضية التحرك الطبقي و معاناة الطبقة الوسطى من الحواجز التي كانت تقف في وجه تقدمها الاجتماعي ، بل هي أيضا قضية مجتمع مريض لا تتحقق فيه العدالة الاجتماعية و المساواة و الكفاية ، و يكثر فيه بالتالي الوصوليون و الانتهازيون و المعقدون المنطوون على أنفسهم ، و لا سيما بين الفئات المثقفة المنتمية الى البرجوازية الصغيرة لأن وضع هذه الطبقة الانتقالي وهي أبنائها

---

١ . نفسه ، ص ١٢٢ .

٢ . نفسه ، ص ٢٥٦ .

وثقافتهم يجعلهم غير راضين عن الأوضاع الشاذة التي لا تتيح لهم التقدم[1] ومن ثم يبدأون النضال إما على المستوى الفردي للخروج من الطبقة وهذه هي الانتهازية، واما على المستوى الاجتماعي وهذا هو الموقف الثوري"[2]. وهكذا فان أبطال محفوظ ينطلقون من معاناة حادة في ظل وضع اجتماعي غير سليم ويشتركون جميعا في فهم ذلك الوضع. ولكنهم، بدل مواجهته بشجاعة، يختارون حلولا فردية لا تسؤدي الى نتيجة ايجابية، وهذا هو سر نهايتهم المأساوية. أما الحلول الاجتماعية فلا يختارها الا أشخاص لا يلعبون دورا رئيسيا في قصص محفوظ وهذا ما سنعالجه فيما يلي:

٢ . الحلول الاجتماعية:

أشرنا من قبل الى أن محجوب استطاع أن يفهم حقيقة الأوضاع في مصر وسيطرة طبقة واحدة على الحكم والمراكز العالية في الدولة. ولكنه راح، مع ذلك، يحاول التسلق نحو الطبقة العليا متناسيا أن ذلك لا يحل مشكلة طبقته ولا مشكلة المجتمع المصري، ولكننا نجد الى جانب محجوب في القاهرة الجديدة شخصيتين أخريين هما علي طه ومأمون رضوان لم يعانيا مثل محجوب من مشكلة الفقر ومن عوائق التحرك الاجتماعي، ومع ذلك اختار كل منهما طريقا اجتماعيا يكفل حل مشكلة العدالة الاجتماعية من الأساس أعني الايمان بمبادئ معينة والسعي الى تطبيقها في المجتمع.

---

١ . يشير عبد المحسن طه بدر في كتابه: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠ – ١٩٣٨) الى أن طاهر لاشين يكشف في قصته حواء بلا آدم عن احساسه ببأس المثقفين من أبناء الطبقة الوسطى الفقيرة الذين يحاولون شق طريقهم في الحياة بكفاحهم وعرقهم... ولكن الارستقراطية تقف حائلا بينهم وبين تحقيق طموحهم. كما يشير الى امتداد هذه المشكلة في اعمال نجيب محفوظ (ص ٢٦١ و ٢٦٣)

٢ . احمد عباس صالح، "رد على نجيب محفوظ"، الكاتب، عدد ٦٠، مارس، ١٩٦٦، ص ٩٨ .

فقد آمن علي طه بالعلم والاشتراكية، واتفق مع بعض زملائه على اصدار مجلة أسبوعية للدعوة الى الاصلاح الاجتماعي . وآمن مأمون بالاسلام ومبادئه وضرورة تطبيقهـا في المجتمع.

وفي خان الخليلي عبر أحمد عاكف عن فهم لقضية المجتمع المصري اذ راح يخاطب والدته قائلا : "...كذب الرجال محور هذه الحياة الجليلة التي تشاهدين آثارها في معترك الحكومة والبرلمان والمصانع والمعاهد ..."[١] ومع ذلك نراه لا يختار حلا ثوريا لمشكلته ومشكلة المجتمع. ولكننا نجد في القصة شخصية أخرى هو المحامي أحمد راشد الذي يؤمن بالمبدأ الشيوعي وبرسل العصر الحاضر: فرويـد وكارل ماركس وغيرهما ويبحث عن حل جذري للمشكلة.

أما الشخصية الثورية في بداية ونهاية فهو حسين الذي عانى من الظلـم الاجتماعي أكثر من أخيه حسنين، اذ اضطرته الظروف لأن يتوقف عن متابعة دراسته بعد البكالوريا . ومع ذلك نراه يقرن آلامه بآلام أسرته وآلام الناس، ويفهم الجانب الاجتماعي لمشكلته الخاصة "...لست فردا ولكنني أمة مظلومة، وهذا ما يولد فـي روح المقاومة ويعزيني بنوع من السعادة لا أدري كيف أسميه..."[٢] كما نراه يحلـم بمجتمع جديد أفضل من المجتمع الذي يعيش بين أحضانه موفقا بين الاشتراكية والدين،

> ... كان في وحدته وضيقه يسعد بأحلام الاصلاح ويتخيل مجتمعا خيرا من المجتمع الذي يعيش بين أحضانه، وحالا خيرا من الحال المقدورة له، وأسعده الأمل في امكان تحقيق خياله دون الاعتـداء على العقائد التي أشرب حبها والايمان بها منذ طفولته[٣].

---

١. خان الخليلي، ص ٦٧.
٢. بداية ونهاية، ص ١٩٩.
٣. نفسـه، ص ٣٠٢.

واخيرا ، نرى في الثلاثية شخصيتين اختارتا حلا اجتماعيا لمشكلات مصر وهما أحمد شوكت واخوه عبد المنعم شوكت. يؤمن الأول بمبادئ الحزب الشيوعي ويعمل على تحقيقها في مصر. أما الثاني فقد اختار العمل تحت لواء حركة الاخوان المسلمين. وتنتهي الثلاثية بعكس قصص محفوظ الأخرى نهاية باعثة على الأمل ، اذ انحاز كمال في النهاية الى صف أحمد وعبد المنعم ، وآمن بالثورة الأبدية التي تعني "العمل الدائب على تحقيق ارادة الحياة ممثلة في تطورها نحو المثل الأعلى . . ."[١]، بعد أن تخلص من الشكوك التي أطاحت بكل معتقداته.

ويلاحظ أن معظم هذه الشخصيات الثورية التي اختارت الحل الاجتماعي لمشكلات المجتمع المصري في ذلك الدور لم تكن تعاني من تلك المشكلة بقدر الشخصيات التي اختارت الحلول الفردية. فعلي طه ومأمون رضوان في القاهرة الجديدة لم يكونا فقيرين كمحجوب وأحمد شوكت وعبد المنعم شوكت في الثلاثية لم تكن أحوالهما المعاشية سيئة. ولعل هذا يعني أن عوامل أخرى غير العامل الاقتصادي كانت تؤثر في اختيار الأفراد للطريق الاجتماعي ، وأن هؤلاء الأفراد ، كما يقول محفوظ نفسه ، "تلقوا مبادئ الثورة عن طريق الثقافة العقلية لا المعاناة الطبقية"[٢].

موقف الطبقة الوسطى من الطبقات الاجتماعية الأخرى

كانت الطبقة العليا في الفترة التي تتحدث عنها قصص محفوظ مسيطرة على الحكم ومستأثرة به كما لاحظنا ، ولم يشاركها فيه الا أقلية من الطبقة الوسطى استطاعت

---

١. السكرية، ص ٣٩٢.

٢. نجيب محفوظ، "ملاحظات على المشكلة الميتافيزيقية"، <u>الكاتب</u>، عدد ٦٠، مارس ١٩٦٦، ص ٦٢.

أن تتجاوز طبقتها الأصلية بالعلم او الثروة او الانحراف وهي الوسائط الثلاثة للتحرك الاجتماعي التي يمكن أن تستنتج من هذه القصص. ويصور محفوظ الطبقة العليا متعالية على الشعب، يائسة من اصلاح شأنه، راتعة في الفساد والزيف والنفاق، وملوثة للجو السياسي في البلاد. نسمع في القاهرة الجديدة الحديث التالي بين جماعة من أبناء هذه الطبقة:

ـ ..أما مصر فيستطيع أي حاكم أن يستبد بها دون كبير خطر.

ـ الواقع أن أي نظام من أنظمة الحكم يستحيل دكتاتورية اذا طبق في مصر..

ـ هذا وطن "ضربك شرف يا أفندينا"...

ـ ....

ـ لن تظفر مصر باستقلالها أبدا...

ـ استبدت بها عادة الحكم الأجنبي!

ـ وما حاجة مصر الى الاستقلال؟... أما الزعماء فيتعاركون على الحكم، وأما الشعب ففير أهل للاستقلال.

(ويسأل محجوب صاحب القول الأخير):

ـ ألا يسرؤك أن تقول هذا القول عن قومك...!

(فيجيبه هذا) ـ لا تجري في عروقي نقطة دم مصرية واحدة!

(محجوب) ـ فما قولك في خطبة الباشا والدك في مجلس الشيوخ، عند مناقشة الميزانية، التي دافع بها عن الفلاح دفاعا وطنيا مجيدا؟!

(الآخر) ـ هذا في مجلس الشيوخ، أما في البيت فكلانا متفق ـ أنا ووالدي ـ على أن أنجح سياسة مع الفلاح هي: السوط![1]

---

١. القاهرة الجديدة، ص ١٨٩ ـ ١٩٠.

أما شبان هذه الطبقة فليس بينهم "من يتحدث عن العروبة، ولا من يناقش في الاشتراكية او أوجست كونت. ومن بينهم جامعيون كثيرون، ولكنهم متأقلمون، فلا كلمة واحدة تذكر بحدائق الأورمان أو دار الطلبة."[١]

لذلك كان من الطبيعي أن تكون الهوة واسعة بين هذه الطبقة وبين الطبقة الوسطى الصغيرة التي لم تكن تختلف كثيرا عن جماهير الشعب المصري من حيث وضعها الاقتصادي ومواقفها السياسية. وكان من الطبيعي أيضا أن يوجد نوع من الجفاء أو العداوة بين المستأثرين بالسلطة والوضع الاجتماعي والاقتصادي الأفضل، وبين المحرومين من كل ذلك ولا سيما الواعين لحرمانهم منهم. ولكننا نجد فرقا بين موقف أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة الذين اختاروا حلولا فردية لمشكلاتهم من الطبقة العليا وموقف الذين اختاروا حلا اجتماعيا لها. فالفريق الأول يحاول التقرب من الطبقة العليا ومصاهرتها والاختلاط بها سعيا وراء بلوغ مرتبتها وان كان لا يخلو من حقد عليها وحسد لها (محجوب وحسنين)، ولا يقوم بما من شأنه زعزعة سيطرتها، بل يشاركها الفساد والزيف اذا حظي بالنجاح وبلغ صفوفها (سالم الاخشيدي ومحجوب). او يكتفي بانتقادها دون القيام بعمل ايجابي لتصحيح الأوضاع اذا لم يلاق النجاح (أحمد عاكف وكمال عبد الجواد). أما الفريق الثاني فان عداوته للطبقة العليا واضحة، وهو يسعى الى هدمها وهدم سيطرتها عن طريق العمل الحزبي المنظم او الدعوة الى مبادئ معينة (أحمد راشد وأحمد شوكت).

ويظهر من قصص محفوظ، مع ذلك، أنه وجد نوع من الاتصال بين الطبقتين العليا والوسطى أمنته القرابة أحيانا، وهكذا كان السيد محمد عفت في الثلاثية صلة الوصل بين جماعته الأصلية المكونة من تجار وبين من انضم اليها بمضي الزمن من موظفين

---

١. نفسه، ص ١٦١.

ممتازين ، نظرا لما يربطه ببعض الشخصيات المصرية الهامة من صلات القربى [١] . كذلك وجدت صداقات بين أفراد من الطبقتين (كامل علي و أحمد بك يسري في بداية و نهاية . و كمال عبد الجواد و حسين شداد في الثلاثية) . و لكن ذلك لم يكن يلغي الفواصل بين الطبقتين . فلا أحمد بك يسري قبل أن يزوج ابنته بهيجة من حسنين كامل علي ، و لا عايدة شداد قبلت الزواج من كمال . مما يؤكد النزعة المتعالية التي اتسمت بها الطبقة العليا ووجود حواجز اجتماعية قوية بين الطبقات .

* أما الطبقة السفلى فيصورها محفوظ غارقة في بحر من الجهل و الخرافات غير واعية لمشكلاتها ، و معتمدة في مواجهة تلك المشكلات على قدرية سلبية "و المكتوب حتما تشوفه العين" . و يمثل هذه الطبقة أحسن تمثيل نونو الخطاط في خان الخليلي الذي حمل شعار " ملعون أبو الدنيا " . و نسمعه يشرح فلسفته :

> ــ اللهم احفظنا . الا أنه من الحكمة ألا تركب الهم أنفسنا . دع الهموم واضحك واعبد الله . الدنيا دنيا الله ، و الفعل فعله ، و الأمر أمره ، و النهاية له . فعلام التفكير و الحزن ؟ إ . . ملعون أبو الدنيا ؟ [٢]

و مثل نونو الخطاط المعلم زفته في القصة ذاتها الذي "يزدرد نصف درهم من الأفيون كل أربع ساعات ، و يمضي في عمله كالحالم لا يفيق أو بالأحرى لا يرغب أن يفيق" [٣] .

* و يبدو من قصص محفوظ أن الاتصال بين أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة و أبناء الطبقة السفلى كان موجودا . فنراهم مجتمعين معا في مجالس الحشيش في خان الخليلي

---

١ . بين القصرين ، ص ٣٧٦ .
٢ . خان الخليلي ، ص ٤٦ .
٣ . نفســـه ، ص ٥٨ .

لأن مشكلات العيش كانت مشتركة بينهم ، و لم تكن أحوال الطبقة الوسطى الصغيرة أفضل كثيرا من أحوال عامة الشعب. و قد تنبه الى هذه الحقيقة أبناء الطبقة الوسطى الثوريون فتبنوا حلولا جذرية لهذه المشكلات المشتركة. أما الذين اختاروا طريق التطلع الطبقي و الحلول الفردية فنراهم متكبرين أحيانا على أبناء الطبقة الدنيا . ففي حين يقبل أحمد شوكت د ون تردد على الزواج من سوسن حماد الآتية من الطبقة العاملة ، نرى كمال عبد الجواد يقف موقفا حذرا من ذلك الزواج . كما يعارض الزواج والدا أحمد لأسباب طبقية. و حسنين في بداية و نهاية لا يعجبه حضور أفراد من الطبقة الدنيا في جنازة والده و يعتبر غيابهم أشرف من حضورهم[١].

العائلــة البرجوازيــة

تواجه الطبقة الوسطى قلقها الاجتماعي الناشئ عن وضعها الوسطي المقلقل بتماسك عائلي تضحي معه العائلة ملاذا عاطفيا لأبناء هذه الطبقة. و يشير أليــنور باربر في كتابه عن البرجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشر الى هذه الحقيقة موضحــا أن الحياة العائلية كان لها أهمية عاطفية أكبر بالنسبة للبرجوازية منها بالنسبة للنبلاء ، و أن التأكيد على أهمية العائلة والروابط العاطفية بين الآباء و الأبناء كان واضحا في الدراما و الفن على حد سواء في القرن الثامن عشر[٢] .

و في قصص محفوظ يبدو التماسك العائلي واضحا في كافة قطاعات الطبقــة الوسطى التي يعالج مشكلاتها . و أول ما يلفت النظر بالنسبة لعائلة أحمد عبــد الجواد السيطرة التامة التي لرب العائلة ، و القسوة البالغة التي يعامل بها زوجته فلا

---

١ . بداية و نهاية ، ص ١٣ .

٢. Barber, The Bourgeoisie in 18th C. France, PP. 75-80.

يسمح لها بالخروج من البيت، كما لا يسمح لها بابداء أية معارضة له: "أنا رجل ،الآمر الناهي ، لا أقبل على سلوكي أية ملاحظة، وما عليك الا الطاعة، فحاذري أن تدفعيني الى تأديبك"[١] . وبمثل هذه القسوة يربي أولاده، ويتحكم بمصائرهم[٢] . ولكن، برغم ذلك، نراه شديد العطف عليهم والحب لهم يتلهف على مساعدتهم واسعادهم فنسمعه يخاطب نفسه بعد مقابلة مع ابنه ياسين،

> . . .أحسبتني حقا سخطت على تبذيرك لأني كنت أرجو ان أزوجك بنقودك؟ !....خسئت. . انما رجوت أن أجدك مقتصدا كي أزوجك بنقودي على وفرة النقود لديك، هذا هو الرجاء الذي خيبته، وهل حسبتني لم أفكر في اختيار زوجة لك الا بعد ضبطك متلبسا بالزنا. . .كلا يا بغل اني افكر في سعادتك منذ توظفت، كيف لا وأنت أول من جعلني أبا. . وأنت شريكي في العذاب الذي أصلتنا اياه أمك اللعينة؟ ! . . ثم أليس من حقي أن افرح بك خصوصا وأنه عليّ ان أنتظر طويلا حتى أفرح بالثور الآخر أخيك أسير العشق ويا ترى من يعيش؟ ! . . [٣]

---

١ . بين القصرين، ص ٩ .

٢ . يشير فالنتين بل في كتابه عن البرجوازية الروسية قبل القرن العشرين الى أن طبقة التجار الروسية كانت تحكم بيوتها بقسوة فلا يتحدث رب العائلة الى زوجته الا بلغة الأمر، وينشأ الأولاد تحت ظل طغيان آبائهم الذين يختارون للابن العمل الذي سيقوم به في حياته ويختارون للأبنة زوجها .

Valentine Bill, The Forgotten Class - The Russian Bourgeoisie from the Earliest Beginnings to 1900 (New York: Frederick A. Prager Publishers, 1959), PP. 189 - 190.

٣. بين القصرين، ص ٣٢٦ — ٣٢٧ .

ونراه شديد الحرص على كرامة خديجة ابنته " من يستهن بخديجة فكأنما استهان بشخصه ، ومن يمس كرامتها فكأنما طعنه في صميم كرامته"[١] ، كما نعلم أنه كان يتألم جدا كلما ذكر أنه منع فهمي ابنه الذي استشهد من أن يتزوج مريم جارتهم ". . . ليته كان صادقا اذن لأعفاه من عذاب يؤرقه كلما ذكر أنه وقف يوما عثرة في سبيل سعادة الفقيد أو كلما خطر بباله أنه ربما مات تعيس القلب او ناقما عليه استبداده وتعنته ، تلك الآلام التي طالما نهشت قلبه ، هل يقدر ياسين أن يعفيه منها ؟"[٢]

ويلاحظ ، من جهة أخرى ، أن ابناء أحمد عبد الجواد وزوجته يبادلونه الحب ويحترمونه جدا برغم معاملته القاسية لهم ، وأن الأخ الاصغر يحترم الأخ الأكبر ، وأن معاملة الاب لابنه تتغير بعد أن ينهي علومه فيعطيه حرية نسبية . وتحرص العائلة على أن تزوج بناتها مبتدئة بالأكبر سنا . كما تحرص على المحافظة على العرض ، وعدم التعرض لأعراض الجيران .

وتجدر الاشارة هنا الى أن ثورة كمال عبد الجواد على الأسرة : ". . . لذلك أقترح ــ وظلام هذه الحجرة شهيد ــ أن تلغى الأسرة ــ هذه الحفرة التي يتجمع فيها الماء الآسن ــ وأن تزول الأبوة والأمومة . . ."[٣] لم تكن سوى جزء من أزمته النفسية والفكرية ، ولم تتعدّ النطاق النظري لأنه ، حتى بعد هذه الثورة ، كان لا يزال يزور الجامع مع والده كل يوم جمعة ، ويمثل دور المؤمن حتى تنتهي الزيارة رعاية لحقوق الأبوة واحتراما للناس[٤]. ولكن هذه الثورة قد تعبر ، في الوقت ذاته عن

---

١ . نفسه ، ص ١٧٧ .
٢ . قصر الشوق ، ص ١٢٥ .
٣ . نفسه ، ص ٤١٣ .
٤ . نفسه ، ص ٤٥٤ .

معاناة كمال من القيود التي كان انتماؤه العائلي يفرضها على حريته الفردية والتي تمثلت في محاولة أبيه أن يفرض عليه اختيار كلية الحقوق ومحاكمته له لأنه نشر مقالا في "البلاغ الاسبوعي" شرح فيه نظرية دارون في النشوء والارتقاء. ويتجلى في الحوار الذي دار بينهما في كلا الحالتين ظهور فجوة حضارية بين الأب والابن نشأت عن تبني الأخير لقيم جديدة تختلف عن قيم أبيه جاءته من مطالعاته وتقوم على تقديس الفكر والسعي وراء الحقيقة. كذلك يمكننا تلمس مثل هذه الفجوة الحضارية في محاكمة أحمد عبد الجواد لابنه فهمي الذي اختار المشاركة في ثورة ١٩١٩ بالعمل الفعلي، وكانت المبادئ والقيم التي توجه فهمي في اختياره ذاك غريبة على الوالد الذي كان يقدم حب السلامة لنفسه ولعائلته على حب الوطن والجهاد من أجل قضيته.

واذا كان أبناء أحمد عبد الجواد قد حاولوا أن يتحرروا من القيود التي كان يفرضها عليهم ولاؤهم العائلي بحذر ومع مراعاة رأي الأب وحقوقه قدر الامكان، فان أحفاده تحرروا من تلك القيود تماما، وصار لهم الحق في تقرير مصيرهم دون أن يكون لوالديهم سوى حق التوجيه غير الملزم. وهكذا تزوج أحمد شوكت قبل أن ينال موافقة والديه، واشترك وأخيه في حزبين سياسيين ممنوعين برغم معارضة والدهما.

ولا نجد شبيها لأحمد عبد الجواد في قصص محفوظ الا رضوان الحسيني في زقاق المدق الذي يعامل زوجته بحزم، ويتصرف في بيته تصرفا مخالفا تماما لتصرفه مع الناس خارجه مثل أحمد. ويشير الكاتب الى السبب النفسي المحتمل لهذه الازدواجية، ولكنه يؤكد، في الوقت ذاته، الجانب الاجتماعي للمشكلة،

> ... ومن عجب أن يكون هذا الرجل ـ الذي طار صيته في الخير والحب والجود كل مطار ـ حازما حاسما وعلى فظاظة وحرص في بيته! ربما قيل انه وقد آيس من كل سلطان حقيقي في هذه

الدنيا يفرض سطوته على المخلوق الوحيد الذي يذعن لارادته ، ألا
وهو زوجه !. . ولكن ينبغي ألا نسقط من حساب التقدير تقاليد
الزمان والمكان ، وما تسنه البيئة لسياسة المرأة وفلسفتها ، وما
تراه أكثرية أهل طبقته من وجوب معاملة المرأة كالطفل تحقيقا
لسعادتها هي نفسها قبل كل شيء . . . [1]

أما بقية عائلات الطبقة الوسطى التي تظهر في قصص محفوظ فليس فيها مثل هذا التشدد . ولكن الرابطة العائلية تبقى مهمة وواضحة . ففي القاهرة الجديدة نرى محجوب دائم الذكر لوالديه برغم تخليه عن كل القيم وفي أسوأ ساعاته . يذكرهما عندما يقرر الزواج من عشيقة الوزير ،

. . . ثم ذكر في طريقه والديه !. . وانقبض صدره على رغمه
وفرق . وتفصد جبينه عرقا . تمثلت له والدته التي تؤمن بأنه
لا يخطئ أبدا ، وتمثل له والده ، الرجل الريفي ، بطيبته
وتقواه وغيرته . انه يتزوج دون علمهما ، ولا يدري متى
يعلمان ، ولكن هل يحتمل أن يعلما بالحقيقة ، لا فلسفته
ولا أعصابه بمستطيعة أن تجعله يواجه مثل هذا التحدي !..
ان ذكرى والديه شبح مخيف فليطرده عن مخيلته . . . [2]

ويذكرهما عندما يتسلم أول مرتب . ويحاول محجوب أن يكفر بالأسرة ". . . ما البنوة؟ أليست عادة سخيفة لاحقة بظاهرة الأسرة؟ بلى ، وسيكفر بهما كما كفر بأخوات لها من قبل . . ." [3] ولكنه لا يفلح في ذلك بل يظل يذكر والديه حتى

---

١ . زقاق المدق ، ص ٥٨ .

٢ . القاهرة الجديدة ، ص ١١٢ .

٣ . نفسه ، ص ١٦٥ .

النهاية. أما كفره بالزواج والمرض وغيرها من القيم المتعلقة بالأسرة فلم يحرره من العذاب والتمزق.

X و يحرص محفوظ على تأكيد أهمية الرابطة الأسروية بالنسبة للطبقة الوسطى عن طريق اظهارها من خلال أكثر شخصيات قصصه كفرا بالقيم مثل محجوب كما رأينا، و مثل حسن في بداية و نهاية الذي يعلمنا الكاتب أن حب أسرته العاطفة الشريفة الوحيدة التي يخفق بها قلبه! وأن النزاع بين ضروريات حياته و أنانيته من ناحية و حبه لأسرته من ناحية أخرى لا يهدأ بنفسه.[٢] و نرى في القصة ذاتها حرص الأسرة على تزويج فتاتها تأمينا لمستقبلها فنسمع الأم تخاطب ابنها حسين،

> لا يقلقني شيء في حياتي كما يقلقني مستقبل أختك نفيسة. أود لو أغمض عينيّ ثم أفتحهما فأجدها في بيت زوجها. ولكن كيف؟! لسنا نملك لتجهيزها مليما، و أخوف ما أخاف أن أموت قبل أن أطمئن عليها. أنتم رجال أما هي فمن الولايا اللاتي لا نصير لهن.[٣]

و لعل تضحية حسين هذا من أجل أخيه حسنين وتضحية أحمد عاكف في خان الخليلي من أجل أخيه رشدي و تعلقه به برغم أنه استولى على قلب الفتاة التي كان أحمد يحبها من مظاهر هذه الرابطة الأسروية القوية. كذلك ربما كان تعلق كامل رؤبة لاظ المرضي بوالدته في السراب مرتبطا بهذا الأمر من بعض وجه.

---

١. بداية و نهاية، ص ١٤٤ ـ قارن بـ "غوريو" في قصة الأب غوريو لبلزاك

٢. نفسه، ص ١٧٤.

٣. نفسه، ص ٢٢٢.

* ولكن التماسك العائلي لا يقتصر على الطبقة الوسطى فيما يبدو. ففي زقاق المدق نلاحظ تعلق زوجة المعلم كرشة بابنها حسين بحيث "ترجو أن تستبقيه حتى بعد زواجه حين يتزوج"[1]. ونراها تفرح جدا عندما يعود الى الزقاق بعد أن لم يعد له عمل مع الجيش البريطاني "عدت يا بني !.. الحمد لله... الحمد لله الذي أثابك الى رشدك، وحماك من وسوسة الشيطان، أدخل بيتك (وضحكت في انفعال). أدخل ياغادر... لكم أقضضت مضجعي، وقطعت قلبي..."[2] كذلك فان والده يفرح به وبزوجته ويرحب بهما في بيته برغم ما كان بينه وبين ابنه من خصام.

ومع ذلك يلاحظ أن عائلات الطبقة الوسطى صغيرة، ولا يحدث أن يتزوج أي من أبناء هذه الطبقة أكثر من زوجة واحدة في آن معا في قصص محفوظ. أما نونو الخطاط المنتسب الى الطبقة السفلى فقد تزوج أربع نساء وكان له أحد عشر ولدا منهن. وهو ينظر الى المرأة نظرة احتقار.

ويلاحظ أخيرا أن النساء في الطبقات العليا يعاملن على قدم المساواة مع الرجال. ولا تدلنا قصص محفوظ على مدى التماسك العائلي في عائلات هذه الطبقة.

دور المرأة البرجوازية في قصص محفوظ

من الأمور اللافتة للنظر في قصص محفوظ أن المرأة لا تلعب دور البطولة في أي من هذه القصص. كذلك لا نقابل الا امرأة موظفة واحدة من الطبقة الوسطى هي

---

١. زقاق المدق، ص ١٢٠.

٢. نفسه، ص ٢٢٢ — ٢٢٣.

رباب جبر المدرسة في السراب. ومع أن بنات أحمد عبد الجواد لا يخرجن من البيت، ولم يذهبن الى المدرسة، ومع أن كامل علي لم يسمح لابنته نفيسة بأن تكمل علومها، الا أن بعض بنات الطبقة الوسطى الأخريات مثل نوال خليل في خان الخليلي بدأن يذهبن الى المدرسة، كما أن هنالك اشارات الى أن البنات بدأن يدخلن الجامعة ويتوظفن. وهكذا بدأ المجتمع يتحول تدريجيا من مجتمع يسيطر فيه الرجال، ويقومون بكل الأعمال الى مجتمع تشارك فيه المرأة الرجل في العمل. ولكن ذلك الأمر كان لا يزال في بدايته عندئذ فيما يبدو. وهكذا فاننا نرى أن الزواج ما يزال قبلة الفتيات. فهذه نوال خليل ذاتها تعد الزواج غايتها وليس العلم والعمل،

> ... ولكنها انضمت في الواقع الى قافلة العلم، وليس العلم ما تنشد، ولا المدرسة بالمأوى الذي يهفو اليه فؤادها، فأحلامها لا تفارق البيت، ولن تزال تعد أمها استاذتها الأولى تتلقى عنها فنون الحياة المنزلية من طهي وحياكة وتطريز، وما رأت في العلم يوما الا زينة تحلي بها أنوثتها وحلية تغلي من مهرها. فتركزت حياتها في هدف واحد: القلب او البيت أو الزواج. أليس أول دعاء دعيت به "العروس"!.. وانه لأجمل دعاء، وانها لتتلهف على أن تكونه، وترقب حظها في صبر ورجاء. ولذلك قدست الزواج قبل أهليتها له بدهر طويل، وأحبت "الرجل" وهو أمل مجهول وعاطفة غامضة. فكانت ثمرة دانية القطوف ترصد من يجنيها!.

★ ومثل نوال نفيسة في بداية ونهاية والتي تتجلى في سيرتها مأساة فتيات الطبقة الوسطى الصغيرة في ذلك الدور بأبشع صورها. تطمح الى الزواج كسائر

---

١. خان الخليلي، ص ١٣٨ — ١٣٩.

بنات طبقتها ، ولكن دمامتها لا تسهل ذلك الأمر. ويموت والدها فيضاف بعدان جديدان الى المشكلة: تدنّ في المرتبة الاجتماعية، وضيق اقتصادي ،

> ... وحيدة ، وحيدة، وحيدة ، في يأسي وألمي ،ثلاثة وعشرون عاما ! ما أبشع هذا. لم يأت الزوج بالأمس والدنيا دنيا فكيف يأتي اليوم او غدا ؟ ! وهبه جاء راضيا بالزواج من خياطة فمن عسى أن يقوم بنفقات الزواج ؟ لماذا أفكر في هذا ؟ لا فائدة ، لا فائدة ، سوف أظل هكذا ما حييت[1] .

وتجد نفيسة في سلمان البقال بعض أمل ينقذها من يأسها ، فتنقاد وراءه ووراء وعوده بالزواج منها . ولكنها لا تلبث أن تكتشف أن أملها لم يكن في محله لأن سلمان تزوج من غيرها . وهكذا أدى عجزها عن تحقيق ذاتها بعد كل التنازلات التي أعطتها بقبولها فكرة الزواج من سلمان ذاته الى سقوطها واستسلامها لرغبات جسدها وتحولها الى موس.

ونفيسة ليست الفتاة الوحيدة التي تنتهي الى موس في قصص محفوظ ، بل هنالك فتاتان أخريان سلكتا الطريق ذاته هما احسان شحاته في القاهرة الجديدة وحميدة في زقاق المدق. ويبدو أن فقرهما وطموحهما الشديد أسهما بشكل رئيسي في ايصالهما الى ما وصلتا اليه اذ كانتا في وصوليتهما لا تختلفان عن محجوب أو سالم الاخشيدي .

واذا كانت فتيات محفوظ مترددات في قبول الدور الجديد الذي يفرضه عليهن علمهن وخروجهن الى المجتمع، فنراهن متمسكات بهدف الزواج ، ومعرضات عن الوظيفة. فان شخصيات محفوظ من الشبان الذين تبنوا حلولا اجتماعية لمشكلات

---

١ . بداية ونهاية، ص ٢٩ .

المجتمع المصري آنذاك كانو مدركين تمام الادراك الدور الساوي لدور الرجل الذي يجب أن تقوم به المرأة في المجتمع. فعلي طه في القاهرة الجديدة يرى أن المرأة شريكة الرجل في حياته "ولكنها شركة دعامتها — في نظري — ينبغي أن تكون المساواة المطلقة في الحقوق والواجبات"[١]. ويرى في احسان شحاتة التي أحبها حبيبة، وزميلة، وندا محترما، ويريد أن يكونا عقلا واحدا وفنا واحدا ومهنة واحدة، فلا يحرم المجتمع عضوا نافعا مثلها، مع انها هي كانت تود لو تنقطع عن الدراسة وتتزوج فلا تعمل الا في البيت[٢]. وأحمد راشد في خان الخليلي ينصح نوال خليل التي كانت تقدم الزواج على أي شيء آخر وتجعله هدفها الوحيد في الحياة بقوله،

> ... يخيل الي أنك لا تحبين العلم كما يجب وان لم ينقصك الاجتهاد أو حسن الفهم فأحبيه كما تحبين الحياة فهو منها بمثابة العقل من شخص الانسان، وينبغي أن يتغذى به عقلك ويتمثله كما يتغذى جسمك بالطعام ويتمثله. أين الشوق الى أسرار الوجود؟ ... أين اللهفة على المعرفة؟ ... لا يجوز أن يتخلف قلب المرأة عن قلب الرجل في طريق العرفان والمجهول ...[٣]

كذلك يؤمن أحمد شوكت بالمساواة بين الرجل والمرأة. ويدعو ابنة خالته نعيمة الى ابداء رأيها في فؤاد الحمزاوي الذي أراد أن يخطبها.

ولكن الذين رأوا الحل كامنا في العودة الى الاسلام لم يكونوا واضحين بالنسبة لدور المرأة في المجتمع. فالمرأة، في رأي مأمون رضوان" طمأنينة الدنيا،

---

١. القاهرة الجديدة، ص ٨.

٢. نفسه، ص ١٨و١٩.

٣. خان الخليلي، ص ١٣٩.

و سبيل وطني لطمأنينة الآخرة"[1]. و يكتفي عبد المنعم شوكت بالقول ان الاسلام سوى بين الرجل و المرأة .

أما الذين تبنوا حلولا فردية لمشكلات المجتمع و مشكلاتهم الخاصة فكانوا غير معترفين للمرأة بدورها الجديد المساوي لدور الرجل . فمحجوب عبد الدائم يرى أن أحقر رجل بامرأتين[2] ، و رشدي عاكف يرى أن المرض و المرأة يلتهمان الشباب و يبددان الآمال[3] . و لا يختلفان عن الذين لم يحصلوا أية ثقافة مثل أحمد عبد الجواد أو حتى نونو الخطاط الذي يرى أن "المرأة في الأصل عجينة طرية ، و عليك أن تشكلها كما تشاء". و انها " حيوان ناقص العقل و الدين فكملها بأمرين ، بالسياسة و العصا !"[4] و هكذا لا تخلو تصرفات هذا الفريق الجنسية من شذوذ لأن العقائد و القيم الجديدة لم تلطف عندهم المشكلة الجنسية الناشئة عن عدم اعتراف المجتمع بأية علاقة بين الرجل و المرأة غير الزواج . فمحجوب " كان يرى حياته مليئة بالمشكلات ، و يضع على رأسها جميعا مشكلته الجنسية"[5] . و هكذا فهو لا يتورع عن معاشرة جامعة أعقاب سجائر ، كما يحاول الاعتداء على ابنة قريبه التي رافقته الى الحفريات. و ياسين عبد الجواد لم يتورع عن محاولة الاعتداء على ضاربة رطل عوراء و جارية سوداء و خادمة مسنة. و لياسين هذا فلسفة خاصة حول الجنس و المرأة و الزواج ،

> . . . فيم تطمح أية امرأة وراء البيت الزوجي و الارتواء الجنسي ؟ ! . . لا شيء ! . . أنهن حيوانات أليفة كالحيوانات الأليفة ينبغي أن يعاملن ، اجل لا يجوز للحيوانات الأليفة أن تتطفل على حياتنا

---

١ . القاهرة الجديدة ، ص ٧ .

٢ . نفسه ، ص ٦٤ .

٣ . خان الخليلي ، ص ٢٥٦ .

٤ . نفسه ، ص ٤٨ .

٥ . القاهرة الجديدة ، ص ٢٥ .

الخاصة وانما عليها ان تنتظر في البيت حتى تفرغ لمداعبتها ،أن أكون زوجا خالصا للحياة الزوجية هو الموت، منظر واحد و صوت واحد و طعم واحد ، خلاصتها في النهاية عدد محدود من الحركات و الأصوات لا تزال تتكرر و تتكرر . . . حتى تنقلب الحركة و الجمود سيين ، و الصوت و الصمت توأمين ،كلا كلا ، ما لهذا تزوجت. . ان قيل انها بيضاء، الست ذا مآرب في السمراء، بل والسوداء. . وان قيل انها مدملجة فما عزائي عن النحيلة و الجسيمة ،أو انها مهذبة سليلة نبل و كرم فهل عطلت من المزايا ربيبة العربات الكارو؟ !. . ١

اما حسنين بطل بداية و نهاية فيريد فتاة تصادقه ، و يتمنى لو نشأ في بيت ملي ء بالجواري ، و يرى أن أجمل منظر في الدنيا منظر أمرأة تخلع ثيابها ،و نراه ينقض على خطيبته بهية مختلسا القبلات من شفتيها بالقوة. وأما كمال عبد الجواد فقد اختار أن يزور بيوت الدعارة بعد أن أخفقت حلوله المثالية لمشكلتي الجنس و الزواج .

الطبقة الوسطى و الدين

ان تقسيم شخصيات محفوظ الى شخصيات متبنية لحلول اجتماعية لمشكلة المجتمع المصري و شخصيات متبعة للحلول الفردية لا يفيد كثيرا في معالجة موضوع الطبقة الوسطى و الدين كما أفاد في علاج موضوعات أخرى. لأننا نلاحظ أن أصحاب الحلول الاجتماعية أنفسهم ينقسمون الى فريقين بالنسبة الى موقفهم من الدين : فريق رأى الحل لكل المشكلات كامنا في العودة الى الاسلام و فريق رأى أن الحل يأتي عن طريق العلم و الاشتراكية. واذا كان ايمان الفريق الأول بالدين لا يقف عند حد ، فان الفريق الثاني لا يرى في الدين سوى مجموعة أساطير و خرافات. ولكن هذين الفريقين

---

١ . بين القصرين ، ص ٣٨٧ — ٣٨٨.

مجتمعين لا يشكلان ، كما سبق أن أشرنا ، القسم الأكبر و لا الأهم من شخصيات قصص محفوظ و لا يأتي في مقدمة الصورة الا أصحاب الحلول الفردية . و هؤلاء أيضا يبدو أنهم لا يتفقون في موقفهم من الدين فبينهم الملحد الكافر بكل شيء مثل محجوب، و منهم من يصوم و يصلي مثل أحمد عاكف . و منهم من ينتقل من الايمان الى الالحاد مثل كمال عبد الجواد .

* و يبدو من قصص محفوظ أن الدين و ما تعلق به من خرافات و أساطير كان لا يزال يلعب دورا في حياة الطبقة الوسطى الصغيرة في ذلك الدور الذي تتحدث عنه هذه القصص و أن ممثليه كانوا يحظون بالاحترام عند كثير من فئات الشعب . و هكذا نرى أحمد عبد الجواد يصاحب أبناءه الى الصلاة كل يوم جمعة ، و نراه يغدق العطاء لمتولي عبد الصمد صانع الاحجبة للأولاد . و نرى كامل رؤبة لاظ في السراب يؤمن بالله و رسله و أوليائه و الدعوات و التعاويذ و الأضرحة ، و أحمد و رشدي عاكف يؤمنان بالعفاريت ، (و سائر سكان الزقاق يجلون الشيخ درويش و يتبركون به . و قد وجد الشيخ درويش هذا في الدين ملاذا بعد ان عجز عن المحافظة على مرتبته الاجتماعية و كذلك وجد عاكف أفندي ملاذا في العبادة و الصلاة بعد عزله من وظيفته .

و لكن انتشار الثقافة و تسرب الفلسفات الالحادية الغربية الى الجامعة المصرية بشكل خاص أدى الى ظهور تيارين : تيار يمثله الذين توطد ايمانهم بالاسلام بعد أن بنوه على علم بالدين و معرفة به (فهمي عبد الجواد و مأمون رضوان وعبد المنعم شوكت) و تيار الذين كفروا بالدين (محجوب عبد الدائم و أحمد شوكت وعلى طه و كمال عبد الجواد) . و لكن الذين كفروا بالدين كانوا فريقين ايضا : فريق تبنى مبادىء العلم و الاشتراكية بدل الدين (علي طه وأحمد شوكت) و فريق حافظ علي الالحاد دون أن يستبدل به ايمانا جديدا (محجوب) ، أو ظل حائرا لا يدري ماذا يختار من المبادىء (كمال عبد الجواد) .

* ويلاحظ أن الهموم الاجتماعية تشغل شخصيات محفوظ في هذه القصص أكثر مما تشغلها الهموم الميتافيزيقية مثل مشكلة الموت وعبثية الحياة الخ . ولا يستثنى من هذا الحكم الا كمال عبد الجواد الذي أعياه البحث عن الحقيقة . ولكن شك كمال وعذابه كانا عقليين فقط ، فظل قلبه مسلما بحقوق الشعب والوطن ووجوب الجهاد من أجلهما ، وظل مستمسكا بحبل الحياة برغم شكه أما في قصص محفوظ بعد الثلاثية فقد انعكس الاهتمام وصارت المشكلات الميتافيزيقية تحتل المكانة الأولى .

المجتمع الانتقالي والقيم المتغيرة ـ العوامل والنتائج

كان من نتيجة اصطدام مصر البلد المتخلف ذات المجتمع التقليدي بالحضارة الغربية منذ القرن التاسع عشر أن بدأ البنيان التقليدي لذلك المجتمع يهتز . وقد كان لذلك ردود فعل قوية وخاصة أن الحضارة الغربية اقترنت في أذهان المسلمين بالدين المسيحي ، وحملت في طياتها تهديدا أكيدا للمؤسسات الدينية الاسلامية لأنها حضارة علمانية غير مبنية على الدين ، فلا تتفق مع اعتبار الاسلام دينا ودولة في آن معا . وانقسم المفكرون المسلمون الى ثلاث فئات في موقفهم من هذه الحضارة الوافدة فئة رأت احياء الدين الاسلامي والتمسك به واعتباره أساس الدولة الاسلامية ، وفئة رأت فصل الدين عن الدولة واعتماد المؤسسات الغربية كالبرلمانات والأحزاب الخ . ، وفئة أخيرة رأت التوفيق بين الاسلام والحضارة الغربية ، وحاولت جهدها اثبات أن الدين الاسلامي في حقيقته لا يتناقض مع تلك الحضارة ، بل يتفق الى حد بعيد مع ما تدعو اليه . وقد ظل هذا الانقسام في الرأي مستمرا في القرن العشرين ، وان كانت الغلبة عمليا لأصحاب فكرة تبني المؤسسات الغربية اذ نشأت الأحزاب وقامت البرلمانات ، وصارت الفكرة القومية تنافس الفكرة الدينية حتى غلبتها في النهاية وكانت ثورة ١٩١٩ تتويجا لتلك الغلبة . ولكن أصحاب الفكرة الاسلامية ظلوا ناشطين في الدفاع عن

فكرتهم والدعوة لها . وقد كان من نتيجة هذا التصادم المستمر بين هاتين الفكرتين أن نشأت حركات سياسية تؤيد كلا منهما ، كما تركت بعض فئات المثقفين في حيرة وتمزق لا تدري أيهما تختار .

وفي قصص محفوظ نرى التيارين الاسلامي والعلماني الغربي يسيران جنبا الى جنب ويتصادمان ، كما نرى فريق الممزقين الحائرين بين التيارين والحضارتين وتتمثل الأزمة الفكرية والنفسية الناشئة عن ذلك التصادم عند كمال عبد الجواد بنوع خاص . نشأ كمال مؤمنا ايمانا عميقا يصلي ويصوم ، ثم دخل الجامعة حيث أتيحت له فرصة الاطلاع على الفلسفات الالحادية فبدأ ايمانه يهتز ، وراحت مثالياته الدينية تتحطم الواحدة تلو الأخرى على صخرة النظريات العلمية والفلسفية من داروينية وغيرها ، وآمن بالعلم بدل الدين ،

> . . . بلى ، وسيكون في تحرره من الدين أقرب الى الله مما كان في ايمانه به ، فما الدين الحقيقي الا العلم ، هو مفتاح اسرار الكون وجلاله ، ولو بعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم ، وهكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة ، مخلفا وراءه تلك الليلة العاصفة ـ التي صارع فيها الجهل حتى صرعه ـ حدا فاصلا بين ماض خرافي وغد نوراني ، بذلك تتفتح له السبل المؤدية الى الله ، سبل العلم والخير والجمال ، وبذلك يودع الماضي بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة . . . [١]

ولكن مثالياته الجديدة هذه ما لبثت أن تحطمت هي الأخرى على صخرة شكوكه المتزايدة ،

> . . . قد يلوذ من الوحشة بوحدة الوجود عند سبينوزا ، أو يتعزى عن هوان شأنه بالمشاركة في الانتصار على الرغبة مع شوبنهور ، أو

---

١ . قصر الشوق ، ص ٣٧٥ .

يهون من احساسه بتماسة عائشة بجرعة من فلسفة ليبنتز في تفسير الشر، أو يروي قلبه المتعطش الى الحب من شاعرية برجسون، بيد أن جهاده المتواصل لم يجد في تقليم مخالب الحيرة التي تبلغ حد العذاب، فالحقيقة معشوق ليس دون المعشوق الآدمي دلالا وتمنعا ولعبا بالعقول واثارة للشك والغيرة مع اغراء عنيف بالتملك والوصال، وهي كالمعشوق الآدمي عرضة لأن تكون ذات وجوه وأهواء وتقلبات ولا تخلو في كثير من الأحايين من مكر وخداع وقوة وكبرياء... [١]

وانتهى به المطاف الى الشك المطلق في كل شيء: في العلم والفلسفة والقيم "— حتى مغامرات الروحية الحديثة وتحضير الأرواح غرقت فيها حتى أذني، ودار رأسي، وما زال يدور، في فضاء مخيف، ما الحقيقة؟، ما القيم؟، ما أي شيء؟ اني أحيانا أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذي أشعر به عند الوقوع في الشر!" [٢]

وتتجلى النتائج المدمرة لهذا الصدام في شخصية محجوب عبد الدائم الذي تحرر من كل شيء: من القيم والمثل والعقائد والمبادىء، ومن التراث الاجتماعي عامة. كان يرى أن أصدق معادلة في الدنيا هي: الدين + العلم + الفلسفة + الاخلاق = طظ. وكان يفسر الفلسفات بمنطق ساخر يتسق مع هواه، يتفق مع ديكارت على أن النفس أساس الوجود، "ثم يقول بعد ذلك ان نفسه أهم ما في الوجود وسعادتها هي كل ما يعنيه. ويعجب كذلك بما يقوله الاجتماعيون من أن المجتمع خالق القيم الأخلاقية والدينية جميعا، ولذلك يرى من الجهالة والحمق أن يقف مبدأ أو قيمة حجر عثرة في سبيل نفسه وسعادتها! واذا كان العلم هو

---

١. السكرية، ص ١٧ — ١٨.

٢. نفسه، ص ١٢٦.

الذي هيأ له التحرر من الأوهام، فليس يعني هذا أن يؤمن به أو أن يهبه حياتـــه ، ولكن حسبه أن يستغله وأن يفيد منه . فلم تكن سخريته من رجال العلم دون سخريته من رجال الدين ، وانما غايته في دنياه : "اللذة والقوة ، بأيسر السبل والوسائـــل ، ودون مراعاة لخلق أو دين أو فضيلة"[١] . ويشير محفوظ الى ظروف نشأة محجوب وفقره كأسباب محتملة لاتجاهه هذا ، ولكنه يؤكد كذلك أن من أسبابه تعرضه "للنزعـــات الالحادية في الجامعة التي وجدت عنده أرضا خصبة تنبت فيها وتنمو " . . . ولكنـــه عثر كذلك على نزعات غريبة وآراء لم تدر له بخلد . عثر على موضـة الالحاد والتفسيرات التي يبشر بها علماء النفس والاجتماع للدين والأخلاق والظاهرات الاجتماعيـــة الأخرى ، وسر بها سرورا شيطانيا ، وجمع من نخالتها فلسفة خاصة اطمأن بها قلبه . . ."[٢]

وهكذا فقد كان للتعرض للحضارة الغربية آثار سلبية عند الشبان الذين لـم يكن لهم من النضج والمناعة ما يحصنهم ضد تلك الآثار . ويبدو أن عجز نظـــام التعليم وبعض العوامل الاجتماعية الأخرى كانت تضاعف من ذلك الأثر .

ولعل من أهم هذه العوامل الهجرة الى المدينة . فاثنان من أبطال محفوظ من أصل قروي ، وهما محجوب عبد الدائم وحسنين كامل . أما الأول فان فقره جعله يرقب ملذات القاهرة من بعيد ، وجعله بعده عن ضوابط المجتمع القروي يتبنى فلسفة تتناسب مع طموحه وفقره وتطلعه الطبقي ، فتنكر لكل القيم الدينية والاجتماعية كمـــا رأينا . وأما الثاني فان شعوره بالضياع في القاهرة أقوى : "سيبقى هذا القبر المغمور في العراء رمزا لضياعهم المخجل في هذه المدينة الكبيرة"[٣] . وقد أدى به ضياعـــه

---

١ . القاهرة الجديدة ، ص ٢٥ — ٢٦ .

٢ . نفســـه ، ص ٢٦ .

٣ . بداية ونهاية ، ص ١٦ .

و فقره و طموحه الى أن يتبع طرقا لا أخلاقية في محاولته الارتقاء اجتماعيا ، و لم يردعه ايمانه الديني القلق ، و لا أية مبادئ تلقاها في المدرسة ، و لا ضوابط اجتماعية لم تكن متوفرة في القاهرة كما في القرى عن أن يتبعها .

و يشير هذا الاهتزاز في القيم الناتج عن العوامل السابقة الى أن المجتمع المصري كان يمر في مرحلة انتقالية. و قد رأينا قبلا كيف أن المرأة المصرية بدأت تنال حريتها ، و تتعلم ، و تتوظف مما أدى الى أن يصير الرجال أقل سيطرة في المجتمع. و كيف أن الأبناء صاروا أكثر حرية في تقرير مصيرهم ، و أكثر بعدا عن قيم آبائهم وعاداتهم و معتقداتهم بسبب الثقافة التي حصلوا عليها بنوع خاص، مما أدى الى ظهور فجوة حضارية بين الأجيال تمثلت أحسن ما تتمثل في عائلة أحمد عبد الجواد في الثلاثية ، حيث نرى الأب شديد التمسك بالتقاليد و بالقيود التي يفرضها على أسرته قليل الاهتمام بما عدا نفسه وعائلته ، قليل التفكير الذاتي ، يقبل المعتقدات و يسلم بها . و نرى الأبناء أكثر تحررا و تسامحا تهمهم شؤون وطنهم و يضحون من أجلها ، كثيري التأمل و مراجعة القيم و المعتقدات. أما الأحفاد فقد تحرروا من جميع القيود العائلية تقريبا و التزموا التزاما كليا بقضايا وطنهم و شعبهم ، و تبنوا قيما جديدة تماما على المجتمع المصري . و اذا كان الأب يمثل المجتمع التقليدي الذي تخنق فيه الفردية تحت وطأة القيود الخارجية ، و الأبناء يمثلون المجتمع الانتقالي الذي يوفق بين متطلبات الفردية و قيود الجماعة ، فان الأحفاد يمثلون المجتمع الحديث الذي تنطلق فيه الفردية فلاتتقيد الا بقيود ذاتية داخلية. وهكذا كان لعملية التغريب آثار ايجابية أيضا اذ ساعدت على انتقال المجتمع المصري من مجتمع تقليدي الولاء الأول فيه العائلة (الصغيرة و الواسعة) و الدين ، و السيطرة فيه للرجال و للكبار ، الى مجتمع انتقالي يسير على طريق الحداثة و العلمنة ، و تلعب فيه المؤسسات الاجتماعية و الحكومية كالمدارس و الأحزاب دورها بجانب العائلة ، و يتقدم الولاء للوطن أو المبدأ على الولاء العائلة أو الجماعة المحلية أو الدين ، و يعطي المزيد من الحرية للنساء و للابناء.

الفرد والمجتمع ــ الاغتراب الاجتماعي في قصص محفوظ[1]

٦ يعرف حليم بركات الاغتراب بأنه "تجربة نفسية شعورية عند الفرد تتصف بعدم الرضى والرفض والاحساس بأن هوة فسيحة عميقة تفصل بين العالم الواقعي الذي يعيشه والعالم المثالي الذي يصبو اليه". ويضيف أن الانسان المغترب هو الانسان الذي لا يشعر بالانسجام مع عالمه ولا يتقبل قيمه وأنماط حياته الراهنة السائدة، ويرفض الأسس والمنطلقات والاتجاهات والنشاطات. وانه "بهذا المعنى قد يغترب الانسان عن المجتمع ككل أو عن مؤسساته كالعائلة والدين والدولة وغيرها"[2].

والاغتراب بهذا المعنى ظاهرة واضحة في قصص محفوظ الواقعية. ذلك أن جميع أبطال هذه القصص تقريبا، والعديد من شخصياتها الأخرى، يشتركون بالشعور بعدم الرضى عن المجتمع الذي لا يتيح لهم أن يحققوا ذواتهم، وأن يعيشوا عيشة حرة كريمة. كما أن بعضهم يرفض القيم السائدة في المجتمع ويضيق بالضغط الذي تمارسه على حريته الفردية بعض مؤسسات ذلك المجتمع. وسنحاول هنا أن ندرس الاغتراب عن المجتمع ككل وعن العائلة والدين في قصص محفوظ، ونؤجل البحث في الاغتراب عن الدولة حتى الفصل الأخير الخاص بالمشكلات السياسية.

أ ــ مصادر الاغتراب: يشير بركات الى مصدرين رئيسيين للاغتراب على صعيد المجتمع هما السيطرة المفرطة Over-Control وعكسها، أي فقدان السيطرة Under-Control[3]. أما السيطرة المفرطة فنلاحظ آثارها في قصص محفوظ متجلية في عجز

---

١. اعتمدت في هذا القسم على مقالة لحليم بركات بعنوان "الاغتراب والثورة في الحياة العربية" نشرت في مجلة مواقف، تموز ــ آب، ١٩٦٩، ص ١٨ ــ ٤٤.

٢. بركات، "الاغتراب والثورة في الحياة العربية"، ص ٢٤ ــ ٢٥.

٣. نفسه، ص ٢٩.

أبطال تلك القصص عن تغيير الواقع البشع الذي يحيونه و المتمثل في سيطرة طبقة واحدة على مقدرات البلاد و الفوارق الطبقية الحادة ، وعجزهم عن تغيير القيم السائدة . كما يعجز بعضهم عن أن يتخلص من سيطرة العائلة (كمال عبد الجواد) . كذلك نرى آثار فقدان السيطرة متجلية في انحلال القيم وعدم تمكنها من السيطرة على سلوك الافراد (محجوب عبد الدائم و حسنين كامل) .

ب ـ نتائج الاغتراب السلوكية : يقول بركات " ان مجالات التصرف الفعلي أمام المغترب يمكن النظر اليها و تحديدها على انها امتداد بين الانسحاب و الاشتراك التمردي الثوري . بكلام آخر ، على المغترب القيام بواحد أو بمزيج من ثلاثة أنواع من التصرف: بامكانه الانسحاب من واقعه ،او الرضوخ اليه ظاهرا و النفور منه ضمنا ، أو التمرد الثوري عليه و تغييره [1] . و في قصص محفوظ نقع على أنواع التصرف الثلاثة هذه .

١ . الانسحاب: وهو الحل الذي اختاره كمال عبد الجواد في الثلاثية اذ ابتعد عن الحياة الواقعية ، وانصرف الى ما سماه بحياة الفكر ، وعاش داخل مشاعره الخاصة ممتنعا عن المشاركة الفعلية في تغيير الواقع. كذلك اختار أحمد عاكف في خان الخليلي الانسحاب ، واجترار آلامه ، وادعاء الترفع عن الاهتمام بالمشكلات الاجتماعية لأن أمور الفكر ، في رأيه ،أهم بالنسبة للمثقف.

٢ . الرضوخ : اختار كمال عبد الجواد هذا الحل بالنسبة لعلاقته بعائلته وبالدين ، اذ ظل يرافق والده الى صلاة الجمعة مراعاة لما سماه بحقوق الأبوة واحتراما للناس كما رأينا سابقا ، مع أنه كان يعلم أن ذلك يتنافى مع الكرامة و الصدق . كذلك اختار فؤاد الحمزاوي الرضوخ و الحذر في انتقاد النظام القائم لأنه تمكن من تسلم وظيفة جيدة . ويمكننا ايضا أن نعد تصرف محجوب عبد الدئم و حسنين كامل اللذين اختارا طريق التسلق الطبقي و مهادنة الطبقة العليا و مشاركتها الفساد نوعا من الرضوخ .

---

١ . نفسه ، ص ٣٣ .

٣ . التمرد الثوري : اختار هذه الطريق عدد من شخصيات محفوظ مثل علي طه و مأمون رضوان في القاهرة الجديدة ، وأحمد راشد في خان الخليلي ، وأحمد شوكت وعبد المنعم شوكت في الثلاثية . وكان هؤلاء يعملون على تغيير الواقع من خلال الدعوة لمبادئ معينة ، أو الانتماء لأحزاب تعمل على قلب الأوضاع القائمة .

ويلاحظ أن الشخصيات الرئيسية في قصص محفوظ تختار الحلين الأولين أي الرضوخ والاغتراب ، وأن الاغتراب عن المجتمع بمعنى رفض الأوضاع الاجتماعية القائمة تشترك فيه معظم شخصيات محفوظ ، ولكن الاغتراب عن الدين والعائلة يقتصر على بعض فئات المثقفين . ومما يخفف الميل الى الاغتراب عن العائلة شدة الاغتراب عن المجتمع وحاجة المرء الى الانتماء . أما الاغتراب عن الدين فيخفف من الميل اليه كون القيم التي تؤدي الى الاغتراب عنه مقترنة بحضارة غربية معتدية .

وبعد ، فقد حاولت في هذا الفصل أن أحدد المشكلات الاجتماعية التي واجهت الطبقة الوسطى المصرية كما عرضها نجيب محفوظ في قصصه الواقعية ، فتبين لي أن المشكلة الأساسية التي كانت تشغل أبطال تلك القصص من الطبقة الوسطى الصغيرة هي مشكلة التحرك الاجتماعي والعوائق الشديدة التي كانت تعترض ذلك التحرك ، وفي مقدمتها استئثار طبقة واحدة بالمناصب وبثروة البلد ، والفوارق الطبقية الحادة . وقد واجه هؤلاء الأبطال الذين كان يقلقهم الصعود الى أعلى والخشية من السقوط الى مرتبة أدنى على السلم الاجتماعي تلك العوائق بحلول فردية اقتحامية تسلقية أو هروبية تعويضية . ولكن بعض شخصيات محفوظ الأخرى كانت تحاول أن تجد حلاً جذرياً للمشكلة عن طريق العمل الحزبي المنظم او الدعوة لمبادئ معينة سعياً وراء محو الظلم الاجتماعي وتحقيق المساواة . وقد اختلفت

مواقف الفريقين من الطبقات الأخرى انطلاقا من إختلافهم في معالجة المشكلة الطبقية ، كما اختلفت مواقفهم من أمور أخرى عديدة كما رأينا .

* وبالنسبة للعائلة كوحدة اجتماعية تبين لي أنها كانت لا تزال تلعب دورا مهما في حياة الطبقة الوسطى الصغيرة التي كانت تعاني من مشكلات عديدة ويحتاج أفرادها الى ملاذ عاطفي لمجابهة تلك المشكلات والشعور بالانتماء ، وخاصة أن انتاءهم الطبقي لم يكن يوفر مثل ذلك الشعور فيما يبدو.

ولاحظت أن هنالك تبدلا في القيم ، وفي الأدوار العائلية وفي موقف الأفراد من الدين ، ومن كثير من المسائل الأخرى مما يعني أن المجتمع كان يمر في مرحلة انتقالية . وربما كانت عملية التغريب العامل الأساسي في ذلك التحول .

وأخيرا وجدت أن العوامل المختلفة داخل المجتمع التي سبقت الاشارة اليها كانت تؤدي الى اغتراب الأفراد عن مجتمعهم .

الفصـــل الثالـــث

المشكـــــلات الاقتصــــاديـــة

أحرزت البرجوازية المصرية عددا من المكاسب الاقتصادية نتيجة ثورة ١٩١٩ ودستور ١٩٢٣ . وبدأت تتحرر تدريجيا من سيطرة الأجانب على الصناعة والتجارة وعلى الوظائف الحكومية . ولكن هذه المكاسب كانت مقصورة، في الأغلب، علـــى البرجوازية الكبيرة التي راحت تتحالف مع طبقة الملاك ، وتشاركها الحكم وتستأثـــر معها بالمناصب المالية . أما البرجوازية الصغيرة فما لبثت ــ بعد تحسن وضعهـا في أوائل العشرينات ــ أن وجدت نفسها تمر بمحنة قاسية "ذلك أن انتشار التعليم وتعثر التوسع الاقتصادي أديا الى وجود عدد كبير من المثقفين العاجزين عن ايجاد وظيفة يقدر عددهم عام ١٩٣٧ بـ ٧٥٠٠ حامل بكالوريا و ٣٥٠٠ من خريجي الجامعة أو المدارس العليا"[١]. وكانت هذه الطبقة تعاني أيضا من عدم تناسب مرتباتها مـع مطالبها المادية والاجتماعية " بينما يحظى بالجزء الوافر قلة لا يستند معظم أفرادها الى الكفاية الحقيقية في العمل والانتاج . فالسخط في دوائر الحكومة عنيف علــى كبار الموظفين المحظوظين . وبينما هناك قيود على الترقيات بالنسبة الى أغلبيــة الموظفين نجد أنه لا قيود زمنية بالنسبة الى كبار الموظفين . . ."[٢]

وبالاضافة الى ذلك عانى موظفو الحكومة من التقلبات السياسية لأنه كـــان من عادة كل حكومة أن تعين أو ترقي عددا كبيرا من مؤيديها أو المتصلين بهم ،وأن تحيل على التقاعد أعداءها السياسيين ، وهكذا وجد في مصر جهازان حكوميـــان كاملان يخلف واحدهما الآخر بالمداورة كذلك وجد عدد من الموظفين المقتدريـــن

---

١ . Issawi, Egypt: An Economic and Social Analysis, P. 151

٢ . البراوي ، حقيقة الانقلاب الأخير . . . ، ص ٧٥ ــ ٧٦ .

والمجتهدين الذين لم يترقوا في مدة عشرين سنة، كما وجد آخرون ممن ترقوا درجات عدة في غضون أشهر قليلة[١].

أما فئة صغار الأعمال فكانت تجد مجال النمو أمامها ضيقا "اذ ليس ثمة وجود للمنافسة الفعلية وانما الاحتكارات الضخمة هي التي تسيطر على الحياة الاقتصادية"[٢].

وأدى التضخم المالي الناشئ عن ظروف الحرب العالمية الثانية الى اتساع الشقة بين الأغنياء والفقراء، وازدياد حدة الغلاء. ولم يفد من ظروفها الا الأجانب وكبار الأغنياء، في حين تضرر أصحاب المعاشات وأصحاب الأعمال الصغيرة. كما أن انسحاب قوات الحلفاء بعد الحرب أدى الى وجود أكثر من ٢٥٠،٠٠٠ عاطل عن العمل والى كثير من الشقاء والهياج[٣].

وهكذا تحملت الطبقة الوسطى الصغيرة أعباء الأزمات الاقتصادية والظروف غير المواتية لتقدمها وعيشها المطمئن من الناحية الاقتصادية. وقد صور محفوظ انعكاسات تلك الوضع على قطاعين من هذه الطبقة بشكل خاص: صغار الموظفين والطلبة. وترى الدكتورة فاطمة موسى أن الفقر هو الحقيقة الأولى في قصص محفوظ الواقعية، وأن العامل الاقتصادي هو المحرك الأول للشخصيات، وهو أساس العلاقات الاجتماعية بل والشخصية بين الأفراد[٤]. ولكنني أخالف الدكتورة فاطمة

---

١. Issawi, Egypt: An Economic and Social Analysis, P. 177.

٢. البراوي، حقيقة الانقلاب الأخير...، ص ٧٦.

٣. Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 262.

٤. فاطمة موسى، "نجيب محفوظ وتطور الرواية العربية"، الكاتب، يوليو، ١٩٦٨، ص ٨٢ — ٨٣.

الرأي . أولا ، لأنه لا يمكن اعتبار الفقر الحقيقة الأولى في الثلاثية حيث تعيش عائلة أحمد عبد الجواد حياة مقبولة لا يعكر الفقر صفوها . والثلاثية، كما هو معلوم، أهم قصص محفوظ الواقعية . وثانيا ، لأنه اذا كان المقصود هو قصص محفوظ الأخرى فقط، فان الفقر في هذه القصص لا يصبح عاملا مهما الا باقترانه بالطبقة الوسطى التي تخشاه لما يعنيه من تهديد لمركزها الاجتماعي ولسعيها الدائب في سبيل تحسين وضعها والارتقاء اجتماعيا . وهكذا فان العامل الاقتصادي لا يعدو كونه رافدا من روافد العامل الاجتماعي بالنسبة لمشكلات الطبقة الوسطى المصرية كما عالجها الكاتب.

١ . مشكلات صغار الموظفين

المشكلة الأساسية بالنسبة لهذا القطاع من الطبقة الوسطى الصغيرة ناتجة عن سعي أفراده لتحسين أحوالهم، وأحوال أسرهم، وتعليم أولادهم في ظروف يصفها الكاتب بأنها دقيقة[1]. أبرزها قلة مرتباتهم نتيجة "الفوارق الطاغية التي تميز الموظفين"[2]، وعدم توافر الضمانات ضد الشيخوخة والمرض والموت والصرف من الخدمة . وتظهر هذه المشكلة بشكل حاد في أغلب قصص محفوظ الواقعية بالصور التالية :

أ ـ القاهرة الجديدة : يمرض والد محجوب بطل القصة في البداية، فيتوقف عن العمل ، وينقطع مرتبه الصغير بعد أشهر معدودة من توقفه . وهكذا يزداد حال الأسرة سوءا على سوء . ويتحمل محجوب الطالب في السنة الأخيرة من الجامعة، والذي لم يعد بينه وبين الامتحان النهائي سوى أربعة أشهر العبء الأكبر المترتب على ذلك لأنه أمل الأسرة الوحيد . ان انقطاعه عن الدراسة حالا يعني ضياع

---

١ . خان الخليلي ، ص ١٦٦ .

٢ . بداية ونهاية ، ص ٣٠٦ .

مستقبله لأنه اذا وظف قبل نيله الليسانس فسيعد كحامل بكالوريا . و يقبل محجوب أن يعيش بجنيه واحد في الشهر بدل ثلاثة جنيهات كيما ينهي سنته . و لكن القلق و الحزن و الثورة لا تزايله أبدا منذ اللحظة التي سمع فيها بمرض والده . حسد صاحبيه مأمون رضوان وعلي طه على ما يتمتعان به من طمأنينة و ثقة ، و دعا بلده لأن توزع الحظ بين أبنائها بالعدل ، و قارن بين حظ أسرته من الحياة و حظ الأغنياء منها " و تفكر محزونا في الفقر الذي يتربص به ، فرآه يبسم اليه هازئا كأنما يقول له : " ما استطعت دفعي بثلاث جنيهات ، فهل تدفعني غدا بجنيه واحدا !"[١] و اضطر لأن يغير مسكنه و مأكله فطحنه الجوع طحنا و اشتد هزاله و شحوب وجهه ، حتى خاف على نفسه ، و فكر في أن يسأل اخوانه أن يطعموه و لكن كرامته أبت عليه ذلك . و اذ يعجز عن دفع شبح الجوع يثور على قذارة الانسان و حقارته ،

> ... هل من دليل على حقارة الانسان أكبر من ضرورة الطعام لحياته ؟ ! أيكون هذا الطعام الذي يقتلع من الطين و يسمد القاذورات زبدة الحياة و قوامها ؟ وعماد التفكير ؟ والمبدع الحق للمثل العليا ؟ أليس هذا دليلا على أن جوهر الانسان قذارة و حقارة ؟ ! ...[٢]

و يتمنى لو كان يعرف فن النشل "... النشل فن سحري ، و النشال يملك ما في جيوب الناس جميعا . و قد عرف سادة هذا البلد مغزى هذه الحكمة"[٣] . و لا نراه يقدم على أي عمل ايجابي لازالة أسباب الظلم الاجتماعي الذي يعاني هو منه كما

---

١ . القاهرة الجديدة ، ص ٤١ .

٢ . نفســـه ، ص ٦٠ .

٣ . نفســـه ، ص ٦٠ — ٦١ .

تماني جماهير الشعب المصري الواسعة، بل يلجأ الى قريبه أحمد أفندي حمد يسعى طلبا للمساعدة. كما يلجأ لابن بلده سالم الاخشيدي سمياورا ايجاد عمل مما يحصل به على بعض المال. ولكنه ينال الليسانس وهنا تبدأ مشكلة أخرى ـ مشكلة ايجاد الوظيفة. وسنرى بعد قليل كيف واجه محجوب هذه المشكلة.

ب ـ خان الخليلي ـ أحيل رب الأسرة عاكف أفندي على المعاش " وهو في أواسط العمر ومشرق الآمال" فانقطع مورد رزقه تقريبا. وتهددت الفاقة أسرته البائسة وعاش أقسى أيام حياته وآلمها الى أن اعتاد تلك الحياة بعدما اتخذ لحياته من نظام وفرض على نفسه من عزلة قاسية[1]. أما ابنه أحمد بطل القصة فقد اضطر لأن يتوقف عن متابعة دراسته بعد البكالوريا " ودفع به الى مواجهة الشدة فانتزع من نعيم الآمال ورمي به الى جحيم اليأس"[2]. وتوظف بالأشغال ـ درجة ثامنة ـ مضحيا في سبيل اعانة أسرته وتعليم أخيه رشدي الذي توظف بأحد البنوك بعد نيله الليسانس. وكان لذلك الانقطاع آثار بالغة في حياته. ولكنه يكتفي بالمعاناة النفسية والشعور بالاضطهاد، ولا يقوم بما من شأنه ازالة الظلم الاجتماعي. كذلك تلهي أخاه رشدي ملذاته وشهواته عن التفكير في مشكلة أسرته ومشكلات المجتمع المصري عامة. وأما الأسرة فتضطر لأن تغير من نظام حياتها، فتكتفي في رمضان بقليل من الصنوبر والزبيب لضرورتهما في الحشو، ونصف لفة قمر الدين لتغيير الريق، وتقنع من الكنافة بمرة واحدة، ومن القطائف ـ وهذه لا تقلى بالسمن ـ بمرتين[3].

---

١. خان الخليلي، ص ٢٤ ـ ٢٥.

٢. نفسه، ص ٣٨.

٣. نفسه، ص ٧٨.

* ج ــ زقاق المدق ــ في هذه القصة موظف سابق هو الشيخ درويش. كان في عهد شبابه مدرسا في احدى مدارس الأوقاف، وعندما انضمت مدارس الأوقاف الى وزارة المعارف، سويت حالته ككثيرين من زملائه من غير ذوي المؤهلات العالية، فاستحال كاتبا بالأوقاف ونزل من الدرجة السادسة الى الثامنة وعدل مرتبه على هذا الأساس. فحزن لمصيره حزنا عميقا، " وثار ثورة جامحة ما وسعته الثورة، يعلنها حينا، ويكتمها ــ مقهورا مغلوبا على أمره ــ أحيانا"، ثم ترك الوظيفة وقطع صلته بالهيئة الاجتماعية، وهجر أهله واخوانه ومعارفه الى دنيا الله كما يسميها، وتحول الى " ولي من أولياء الله يأتيه الوحي باللغتين العربية والانجليزية"[١]. وهكذا تتجلى في سيرته مأساة الطبقة الوسطى الصغيرة ومعاناتها من الأزمات الاقتصادية الحادة بسبب غياب الضمانات الاجتماعية.

د ــ بداية ونهاية ــ يتوفى رب الأسرة في بداية القصة تاركا لأسرته جنيهين وسبعين قرشا هي كل ما تملك من نقود، فتبدو الحياة لها كحالة الوجه. وتضطر الأم لأن تقطع المصروف عن ولديها التلميذين. وتضطر الابنة لأن تخيط بالأجرة. كما تضطر الأسرة لأن تنتقل الى مسكن جديد، ولأن تبيع الاثاث قطعة بعد قطعة. ويضطر الابن الأكبر حسن الذي لم يتعلم أن يبحث لنفسه عن عمل، فلا يجد الا في الحياة غير الشريفة ملاذا. ونسمعه يتحسر على أيام والده،

> ... رحمك الله يا أبي، ألا تعلم بأني تعبت كثيرا بعد موتك؟
> كان نزاعنا لا يهدأ، وكنت أشعر أحيانا بأني أمقتك، ولكن
> أين أيامك؟ فيما عدا أيام العيد لم أتناول لقمة في بيتنا.
> وماذا يأكلون؟ الفول غذائي الوحيد، فول، فول. الحمير
> تجد شيئا من التنويع[٢].

---

١. زقاق المدق، ص ١٦ ــ ١٨.

٢. بداية ونهاية، ص ١١٨.

وعنـــد مــــا يسأله أخوه حسنين عن نوع عمله يجيبه "أني أكسب بعرق جبيني على نحو ما . . . أو بالأحرى بدم جبيني . لا بد من العرق كي تعيش ولكن يختلـــف العضو الذي يعرق بين فرد وآخر"[١] . وهكذا فهو يدفع حياته ثمنا للقمة العيـــش في نهاية الأمـــر .

أما حسين الابن الثاني فيضطر لأن يتوقف عن متابعة دراسته بعد حصولـه على البكالوريا ،

. . . وقد ذاقت الأسرة في الفترة السابقة لظهور النتيجة مرارة الاشفاق والشك . ولم يكن أحد يجرؤ على أن يتكهن بمـــا يجد فيما لو أخفق حسين وحرم من المجانية . . . وعند مـــا تناول حسين الجريدة من البائع وأجرى بصره الزائغ فـــي صفحاتها باحثا عن نمرته ، التف به أخوه وأخته وأمه بقلـــوب خافقة ينبض في أعماقها الأمل ويظلها الخوف والعـــــذاب . فانطبعت اللحظة الرهيبة على نفوسهم الى الأبد[٢] .

ويلجـــأ الـــي صديق والده أحمد بك يسري ليجد له وظيفة . ونسمعـه يخاطب نفســـه ،

. . . اننا نأكل بعضنا بعضا ، ينبغي أن نسر بتهريج حسن وعبثه ما دام يجيئنا كل شهر بفخذ خروف . وينبغـــي أن نسر بأختنا الخياطة ما دامت تعد لنا لقمتنا الجافة . وهـــذا الشاب المتذمر ينبغي أن يسر بانقطاعي عن التعليم مـــا دام سيتم تعليمه هو . يأكل بعضنا البعض . أي وحشية أي حياة !

---

١ . نفســـه ، ص ٢٤٠ .

٢ . نفســـه ، ص ١٧٦ — ١٧٧ .

لعلي لا أجد الا عزاء واحدا وهو أن قوة اكبر منا جميعـــا
تطحننا طحنا وتلتهمنا التهاما ، واننا نصمد ونتقاتل"[١] .

وبعـــد ان يعـــين كاتبا بمدرسة طنطا الثانوية بمرتب قدره سبعة جنيهات شهريا نراه حزينا ثائرا يربط بين مشكلته ومشكلة الأمة ولا ينسى الأمل ،

"... يا للعجب. ان مصر تأكل بنيها بلا رحمة. ومـــع
هذا يقال عنا اننا شعب راض. هذا لعمري منتهى البؤس.
أجل غاية البؤس أن تكون بائسا وراضيا . هو الموت نفســه .
لولا الفقر لواصلت تعلمي هل في ذلك من شك؟ الجاه والحظ
والمهن المحترمة في بلدنا هذا وراثية. لست حاقدا ولكني
حزين. حزين على نفسي وعلى الملايين. لست فردا ولكنني
أمة مظلومة ، وهذا ما يولد في روح المقاومة ويعزيني بنـــوع
من السعادة لا أدري كيف أسميه. كلا لست حاقدا ولا يائسا
أيضا ، واذا كانت فرصة التعليم العالي قد أفلتت من يدي ،
فلن تفلت من يد حسنين ، وربما وجدت نفيسة الزوج المناسب.
سوف ترد الروح الى أسرتنا فنذكر أيامنا السود بالفخار"[٢] .

وهكذا فان حسين يحزن ولكنه لا يغضب ، ويتغلب شعوره بالواجب علـــى مشاعره الأخرى ، ويقرن آلامه وآلام أسرته بآلام الناس فيصبر ويتعزى . ولا ينظـــر الى مشكلته من زاوية فردية ضيقة بل يفهم جانبها الاجتماعي العام ، ويسعى الـــى حلها على هذا الأساس عن طريق اعتناقه للمبدأ الاشتراكي . وذلك على خلاف أخيه أخيه حسنين الذي تعامى عن حقيقة المشكلة ، وأصبحت ثورته نوعا من التطلع الطبقي والخطو الفردي غير المتزن نحو الهاوية .

---

١ . نفســـه ، ص ١٨٤ .

٢ . نفســـه ، ص ١٩٩ .

هـ ـ السراب ـ بطل القصة كامل رؤبة لاظ توقف عن متابعة دراسة الحقوق ليس بسبب الفقر بل بسبب خجله الشديد وخوفه من الناس. ولذلك وجد نفسه بحاجة شديدة الى انتحال الأعذار عن انقطاعه عن العلم وفراره من معاهده ، وتصوير نفسه في صورة الضحية البريئة!

ثم وظف بالبكالوريا بمرتب ضئيل ، فنراه يشكو من أن الوظيفة تقبر الطموح "... لم أكن ممن يشقيهم الطموح ، واذا كان لي منه شيء فيما مضى من أيام الأحلام، فقد قبر في ادارة المخازن بوزارة الحربية حيث تمد علاوة نصف جنيه من الآمال البعيدة..."[٢] كما نراه شديد القلق على مصيره بعد وفاة جده وانقطاع معاشه ،

> ... تجهم لي وجه الدنيا ، وخارت عزيمتي ، وامتلأت نفسي تشاؤما حتى توقعت شرا وراء كل خطوة أخطوها . أجل ألا يجوز أن تستغني عني الحكومة لسبب أو لآخر فأحرم حتى هذا المرتب الضئيل ؟ ... ألا يحتمل أن يصادفني حادث في الطريق يقضي على بعاهة تقعدني عن السعي من أجل الحياة؟ !.. لماذا وجدنا على الأرض؟ ؟

ويضطر أن يستغني وأمه عن الخدم ، وان يغيرا مسكنهما ، ويحول الفقر بينه وبين طلب يد الفتاة التي أحبها فيلجأ الى والده طلبا للمساعدة. ولا تحل مشكلته الا بعد وفاة ذلك الوالد المستهتر الذي ترك له ثروة كبيرة نسبيا .

---

١ . السراب، ص ٩٦ .

٢ . نفسه ، ص ١٠٧ .

٣ . نفسه ، ص ١٣٣ .

وهكذا فان الفقر وقلة المعاش وغياب الضمانات تجعل فئة صغار الموظفين دائمة القلق على مصيرها ، وتحد من طموح أفرادها وتطلعهم الى تحسين أحوالهم والارتقاء اجتماعيا . ولذلك تعاني هذه الفئة من الطبقة الوسطى أشد المعاناة بسبب ما تتصف به — مثل سائر فئات الطبقة الوسطى — من تطلع الى أعلى وحساسية شديدة تجاه كل ما يهدد مركزها الاجتماعي كما رأينا في الفصل السابق .

٢ . مشكلات الطلبة المتخرجين

واجهت هذا القطاع من الطبقة الوسطى في الفترة التي تتحدث عنها قصص محفوظ الواقعية مشكلتان : أزمة البطالة ، ومشكلة الوساطات. أما أزمة البطالة فيكثر الحديث عنها في السكرية حيث نسمع ابراهيم شوكت يخبر ابنه احمد أن بعض أصحابه يشكون مر الشكوى من أن أبناءهم الجامعيين لا يجدون عملا ، أو يعملون كتبة بمرتبات تافهة[1] . كما نسمع أحمد عبد الجواد وصحبه يتحدثون عن الأزمة الاقتصادية وضيق المستقبل أمام الشباب بحيث أن خريجي الجامعات يتوظفون بعشرة جنيهات ان وجدوا وظيفة بطلوع الروح[2] . ويدور حديث بين الطلبة حول الموضوع ذاته :

— مهلا ، ان الوظائف لا تنتظرنا ، ما مستقبل الحقوق أو الآداب؟ . .
التسكع أو الوظائف الكتابية ، تساءلوا عن المستقبل اذا شئتم . . .
— أما وقد ألغيت الامتيازات فستفتح الأبواب! . .
— الأبواب؟ ! السكان أكثر من الأبواب . . .

---

١ . السكرية ، ص ٣٠ .

٢ . نفســـه ، ص ٥٤ .

ـ اسمعوا . النحاس أدخل الطلبة الجامعة وكانت أبوابها
مغلقة ، وأتاح لهم النجاح بعد أن أعجزهم المجموع المتعسف ،
فهل يعجز عن توظيفنا [١] .

وفي القاهرة الجديدة اشارة الى موضوع البطالة أيضا : "ان أقرانه يتحدثون عن المستقبل بحزن ويأس. والسابقون منهم يقبعون وراء المكاتب في الوزارات يروحون بالشهادة عن وجوه أحرقتها حرارة الدرجة الثامنة.." [٢]

وكانت مشكلة الوساطات تفاقم من أزمة البطالة بجعلها الوظيفة متيسرة لأصحاب النفوذ في الدولة أي أبناء الطبقة العليا الحاكمة ومن تحالف معها ، وسدها الطريق أمام أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة والطبقات الشعبية الذين أتيحت لهم فرصة التعليم الجامعي والذين لم تكن الشفاعات والوساطات متوافرة لديهم .

وفي القاهرة الجديدة اشارات عديدة الى هذه المشكلة : "ومضى الصحاب يجتمعون كل مساء تقريبا بنادي الجامعة ، وكانت تترامى اليهم أخبار الزملاء ذوي الحسب والنسب ، ممن تفتح لهم ابواب الحكومة بقدرة قادر." [٣] ونسمع موظف المستخدمين في مكتبة الجامعة ينصح محجوب عند طلبه وظيفة منه ،

ـ اسمع يا بني : تناس مؤهلاتك ، ولا تضع ثمن طلب الاستخدام ،
المسألة لا تعدو كلمة واحدة ولا كلمة غيرها : هل لديك شفيع ؟
أأنت قريب أحد ممن بيدهم الأمر؟ أتستطيع أن تطلب بيد
أحد من رجال الدولة؟ ان أجبت بنعم فمبارك مقدما ، وان أجبت
بكلا فلتولّ وجهك وجهة أخرى . . . [٤]

---

١ . نفسه ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

٢ . القاهرة الجديدة ، ص ٧٢ .

٣ . نفسه ، ص ٧٩ .

٤ . نفسه ، ص ٨١ .

و يفهم محجوب النصيحة جيدا فنسمعه يخاطب سالم الاخشيدي سكرتير الوزير: "يا سعادة البك الشهادة بغير شفاعة أرخص من ورقة اللحم، فهل آمل أن تلحقني بوظيفة ما؟"[١] و يدله هذا على طريقة أخرى و هي أن يلجأ لرجل أو سيدة ممن يدبرون الوظائف مقابل تنازل طالب الوظيفة عن جزء من مرتبه مدة من الزمن. ثم يعرض عليه الزواج من عشيقة الوزير، فيقبل محجوب، و يتسلم وظيفة عالية، و تحل مشكلة ايجاد الوظيفة و مشكلة الفقر بالنسبة اليه. و لكن الحل لم يدم طويلا و كانت نهاية محجوب سريعة لأنه تناسى الجانب الاجتماعي العام لمشكلته و اختار حلا فرديا لها كما رأينا في الفصل السابق.

و في السكرية أيضا اشارات الى الوساطات و أهميتها لطالبي الوظيفة و للموظفين الساعين الى الترقيات. فنسمع ابراهيم شوكت يوالي نصح ابنه أحمد: "ـ ليس الشبان اليوم كما كانوا في الزمن الماضي، السياسة غيرت كل شيء، فكل كبير له مريدوه منهم، و الطموح الذي يريد أن يشق سبيله في الحياة لا بد له من كبير يرجع اليه"[٢]. كما نسمع ياسين عبد الجواد يخاطب مديره الذي نقل اليه خبر ترقيته الى الدرجة السادسة و التي ما كانت لتتم لولا الوساطة بقوله: "الوساطة! ما لها؟ هل تتم حركة كبيرة او صغيرة دون وساطة؟ هل ترقى مخلوق في هذه الادارة، في هذه الوزارة، بما فيهم حضرتك، دون وساطة؟"[٣] و نسمعه أيضا يخاطب منافسه على الدرجة السادسة: "و هل يوجد رزق بدون وساطة في الدنيا؟ اسمع كما

---

١. نفسه، ص ٨٣.
٢. السكرية، ص ٩٣ — ٩٤.
٣. نفسه، ص ١٢٩.

تشاء وأسمى كما أشاء، وسيأخذ الدرجة صاحب القسمة والنصيب! ...»[1] ويدور الحديث التالي بين اثنين من الموظفين في حانة:

ــ انت رئيس مستخدمين درجة سادسة، ما لك أنت والسياسة؟
ــ درجة سادسة قديم من فضلك، من أيام سعد!
ــ انا درجتي السادسة من أيام مصطفى كامل، لذلك أحلت بها على المعاش اكراما لذكراه... اسمعوا، اليس الأفضل أن نسكر ونغني؟[2]

وهكذا فان قطاع الطلبة كان يعاني من مشكلات معيشية ولا يرى المستقبل مضمونا أمامه لأن البطالة من جهة، والوساطات من جهة أخرى، كانت تحد من قدرة الطالب المتخرج على ايجاد العمل المناسب لمؤهلاته والذي يضمن له عيشا مريحا وتقدما اجتماعيا وهما الأمران اللذان يضعهما ابن الطبقة الوسطى هدفا لجهوده ومساعيه. لذلك نراه يسعى الى تخطي هذه العقبات بطرق مختلفة كما رأينا في الفصل السابق.

٣. الأزمات والظروف الخاصة

في السكرية اشارة الى الأزمة الاقتصادية التي واجهتها مصر عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام، وتضرر التجارة منها،

> عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام، تلك الفترة التي كان التجار من أصحابه يسمونها أيام الرعب، حين استبد اسماعيل صدقي بالحياة السياسية وسيطر القحط على الحياة الاقتصادية، وكانوا يصبحون ويمسون على أخبار الافلاس والتصفيات، ويقلبون الأكف وهم يتساءلون عما يخبىء لهم الغد...[3]

---

١. نفسه، ص ١٩٥.

٢. نفسه، ص ٦٩.

٣. السكرية، ص ١٩.

وفيها اشارة الى الغلاء في فترة الحرب الثانية والى معاناة الموظفين منه [١]. كما يشير الكاتب في خان الخليلي الى أغنياء الحرب [٢]. (وفي زقاق المدق اشارة الى الثراء الذي أصابه التاجر سليم علوان أثناء الحرب بعد أن أخذ يتجر بمواد لم يكن يلقي اليها بالا كالشاي، فغامر في السوق السوداء وربح ارباحا طائلة [٣]. ولكن السيد علوان يظل يخشى الافلاس "وهو الى ذلك يعرف حق المعرفة سير تجار كبار ممن ربحوا أموالا طائلة، وانتهوا الى الافلاس والفقر المدقع او الى شر من ذلك كالانتحار او الموت كمدا" [٤]. لذلك نراه يأخذ بعين الاعتبار اقتراح أبنائه شراء أرض أو تشييد عمارات بدل كنز الأموال في المصارف "فهو يعلم حق العلم ان التجارة التي تدر المال بلا حساب قد تبتلعه في ساعة نحس واحدة" [٥]، ولكن ظروف الحرب لم تكن تسمح بذلك.

وفي القصة ذاتها نقابل شخصا آخر استفاد من ظروف الحرب الثانية هو حسين كرشة. ويخبرنا الكاتب أنه كانت تلوح على سيماه مظاهر نعمة المشتغلين بالجيش البريطاني، وأنه بعد عمله مع الانكليز نظير ثلاثين قرشا في اليوم ارتقت حاله وامتلأت جيبه ورفه عن نفسه بحماس فائر لا يعرف الحدود وسمى نفسه باللارج (Large) [٦] ولكنه كسائر المشتغلين مع الجيش البريطاني صرف من العمل قبيل انتهاء

---

١. نفسه، ص ٣٤٤ و ٢٩١.

٢. خان الخليلي، ص ٦٢.

٣. زقاق المدق، ص ٦٨.

٤. نفسه، ص ٧٠.

٥. نفسه.

٦. نفسه، ص ٣٦.

الحرب، فنسمعه يخاطب صاحبه عباس الحلو الذي عمل هو الآخر مع الجيش البريطاني : "نحن تعسا". بلد تعس وأناس تعسا". . أليس من المحزن ألا نذوق شيئا من السعادة الا اذا تطاحن العالم كله في حرب دامية؟ ! فلا يرحمنا في هذه الدنيا الا الشيطان !"[١] ويتابع بعد أن يسكر: "فكرة رائعة! . . سأتجنس بالجنسية الانجليزية، في بلاد الانجليز الكل سواسية، لا فرق بين الباشا وابن زبال، فلا يبعد أن يصير ابن القهوجي رئيس وزارة. . ."[٢] وهكذا تمتزج المشكلة الاقتصادية بالمشكلة الاجتماعية عنده. ولكنه لا يعي ارتباطهما الا وهو سكران. كما انه يختار حلا هروبيا بدل مواجهة المشكلة بشجاعة ووعي.

كذلك هنالك اشارة في بين القصرين الى ارتفاع الأسعار واختفاء المواد الضرورية بسبب الحرب الأولى. ونلاحظ أن التاجر أحمد عبد الجواد كان حريصا على مواجهة ذلك، فأوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والجبن[٣]. ويخبرنا الكاتب أن أحمد هذا كان يستيقظ في ساعة باكرة مهما تأخر به وقت النوم حتى يتسنى له الذهاب الى متجره قبيل الثامنة، وأن لياليه الصاخبة لم تكن لتنسيه واجب النهار[٤]. ونعلم أن سليم علوان في زقاق المدق كان يحرص على الاشراف من مكتبه في الوكالة على داخل الوكالة وخارجها ومراقبة العمال والحمالين والزبائن جميعا "لأن التاجر الحق — على حد تعبيره — ينبغي أن يكون مفتوح العينين دائما"[٥]. وهكذا تتجلى في هذين النموذجين

---

١. نفسه، ص ٢٦٧.
٢. نفسه، ص ٢٧٤.
٣. بين القصرين، ص ١٧.
٤. نفسه، ص ٢١.
٥. زقاق المدق، ص ٦٨.

صفات البرجوازية النشيطة الحريصة على نجاح عملها . واذا كان أحمد عبد الجـواد يعرف الكثير من المتع، فيعاشر النساء و يعاقر الخمرة ، و يسهر مع خلانه سهـــــرات طويلة صاخبة ، و يعرف أمور العالم حوله من سياسية و اجتماعية و يشارك فيها ، فـان سليم علوان لا يعرف الا متعته الزوجية ، وكان لا يكاد يفقه شيئا ـ فيما عدا التجـارة ـ من أمور الدنيا [١] . وهو بذلك يشابه "غوريو" في قصة الاب غوريو لبلزاك .

و في خان الخليلي اشارة الى الامتيازات الاجنبيـة ،

> هذا صحيح ولكن لا يوجد حد فاصل بين السفلة و الطبقة العالية ،
> فأرستقراطيو اليوم كانوا سفلة الأمس. ألا تعلم أن رعاع الغزاة
> انتهبوا في الماضي أراضينا بحكم الغزو؟ . . وها هم أولاء
> يكونون طبقة عالية متمتعة بالجاه و السؤدد و الامتيازات الـــتي
> لا حصر لها [٢] .

و يلفت النظر في الثلاثية عائلة عبد الحميد شداد المضارب بالبورصة و الـتي تطبق على نفسها نظاما اقتصاديا دقيقا ، وتكتفي بما يعد في بيئتها من الضروريـات ، فلا تنفق مليما واحدا في غير موضعه و بلا موجب ، وتعامل الخدم باجحاف من الناحية المادية ، وتكتفي بتقديم ماء بارد للزوار ، وتعيش حياة المال غايتها و العمل المتواصل جوهرها ، و مع ذلك تحيط نفسها بمظاهر الجاه [٣] . ولعل هذه البرجوازية الكبيرة هي التي قصدها ر. هـ. غريتون عندما عرف الطبقة الوسطى بأنها ذلك القسم من النـاس الذي يعتبر المال الشرط الأول للحياة و الأداة الرئيسية لها [٤] .

---

١ . نفســـه ، ص ٧١ .

٢ . خان الخليلي ، ص ٦٢ .

٣ . قصر الشوق ، ص ١٦٨ — ١٦٩ .

٤ . R. H. Gretton, The English Middle Class (London: G. Bell and Sons LTD, 1917), P. 8.

وبعد ، فقد حاولت في هذا الفصل أن أبرز مشكلات الطبقة الوسطى المصرية الاقتصادية في فترة ما بين الحربين كما عالجها محفوظ في قصصه الواقعية. فتبين لي أن محفوظ اهتم بمشكلات صغار الموظفين والطلبة بنوع خاص، وأن الأولين عانوا من قلة المعاش وعدم توافر الضمانات، وأن الآخرين عانوا من البطالة والوساطات، وكانت هذه المشكلات تعيق محاولات هؤلاء وأولئك تحسين أحوالهم والارتقاء اجتماعيا وهو ما تسعى اليه فئات الطبقة الوسطى. وهكذا فان المشكلات الاقتصادية كانت رافدا من روافد المشكلات الاجتماعية بالنسبة لهذه الطبقة.

* كما وردت في القصص اشارات الى بعض الأزمات والى ظروف الحرب الاقتصادية واستفادة بعض الفئات منها وتضرر فئات أخرى.

الفصـــــل الـــرابــــــع

المشكــــــــلات السيـــاسيـــــــــة

يرى صفران "أن حركة الأفغاني ــ عرابي كانت التعبير العملي الأول عـــــن الوطنية في مصـــر. ولكن هذه الحركة أخفقت في أن تتطور الى حركة باقية بسبب ميزتها التامة السلبية تقريبا، وعدم رسوها في فئة اجتماعية محددة. أما مع مصطفى كامل ولطفي السيد فقد طورت الوطنية نهائيا أيديولوجية ايجابية تستلهم الأفكـــار العلمانية الليبرالية، وتستطيع الاعتماد على دعم طبقة وسطى هامة مكونة من المهنيين والموظفين الرسميين والمثقفين برزت في غضون ذلك. وهنالك أسباب عديدة تبرر استجابة الطبقة الوسطى لاغراء الليبرالية الوطنية أكثر من غيرها تنبع من أنها طبقـــة جديدة كليا لا جذور تقليدية لها في المجتمع، فهي بالتالي أكثر تقبلا للأفكار الجديدة بصورة عامة، وكان على أفرادها أن يتعرضوا بقوة للثقافة الغربية كي يصيروا مؤهلـــين لوظائفهم... وبما أنهم لم يشكلوا جزءا من النظام التقليدي المشترك، وبسبب انتمائهم، في الأغلب، الى مهن مستقلة، فان أفراد هذه الطبقة كانوا أكثر ميلا وقدرة من أفـــراد الطبقات الأخرى على ربط أنفسهم مع وحدة كبيرة وبالأحرى غامضة تدعى "الأمة"[1].

ويؤكد عيساوي، من ناحية أخرى، أن الطبقة الوسطى القاطنة في المـــدن والمكونة من محامين وأطباء وصحفيين وأساتذة وموظفين رسميين كانت القطاع الأكثر تأثرا بأوربا في مصر، وأنها شعرت بأنه مضيق عليها اقتصاديا وسياسيا من قبـــل الانكليز، فكانت بالتالي الطليعة الطبيعية للحركة الوطنية في عهد الاحتلال[2].

---

١. Safran, Egypt in Search of Political Community, PP. 102 - 103.

٢. Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 42.

ولعب الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل دورا تاريخيا في قيادة الحركة الوطنية وتوجيهها قبل الحرب العالمية الأولى . واستطاع أن يجتذب كثيرا من الفئات المثقفة من الطبقة الوسطى ـ مثل الموظفين والطلبة والمحامين ـ الى صفوفه ، كما اجتذب طلبة المدارس الى الحركة الوطنية وكانوا يعدون سلاحا من أسلحته [١] . ولكن دور هذا الحزب انتهى عند انفجار الحرب الأولى لأسباب عديدة تتصل بتغير الظروف الدولية والأيديولوجية التي كان يعمل بمقتضاها [٢] ، ووفاة محمد فريد واختفاء زعامته القوية بعد زعامة مصطفى كامل ، وظهور قيادة منظمة جديدة تمثلت في " الوفد المصري " [٣] .

ويعتبر الوفد ، في رأي عبد العظيم رمضان ، امتدادا أيديولوجيا "لحزب الامة" الذي كان يتكون من عنصرين : عنصر المفكرين من ذوي العقائد الحرة ، وعنصر الأعيان من أصحاب الأملاك الواسعة . وكان من أهم أهدافه المطالبة بالدستور والاستقلال عن كل من تركيا وانكلترا ورفع لواء القومية المصرية ، والتفاهم مع سلطات الاحتلال بغية اعداد الأمة للاستقلال الذاتي . وهو يختلف بذلك عن الحزب الوطني الذي كان

---

١ . رمضان ، تطور الحركة الوطنية . . . ، ص ٣٤ و ٣٦ .

٢ . يقول رمضان ان سياسة هذا الحزب تتلخص في ثلاثة أمور : "اولا ـ أن المسألة المصرية مسألة دولية ، فيجب الاستعانة بأوروبا لاكراه انجلترا على الجلاء عن مصر . ثانيا ـ أن الدولة صاحبة السيادة الشرعية على مصر ، هي الدولة العثمانية ، فيجب التشبث بهذه العلاقة لاظهار بطلان الاحتلال واكراهه في النهاية على الجلاء . ثالثا ـ الدعوة للجامعة الاسلامية . . . " فلما انتهت الحرب أصبحت فرنسا حليفة لانجلترا ، وانهارت الدولة العثمانية تماما ، وانتهت بذلك سياسة الحزب الى طريق مسدود . المرجع نفسه ، ص ٣٢ و ٣٦ .

٣ . نفسه ، ص ٣٧ .

يدعو للجامعة الاسلامية ، و يحارب الاتفاق أو التعامل مع الانكليز. على أن آراء حزب الأمة و دعوته لم تستطع أن تشق طريقها في أذهان الشعب بمثل ما شقت طريقها آراء الحزب الوطني و دعوته [١] .

وكان الوفد الذي شكله سعد زغلول للمطالبة بالاستقلال في أعقاب الحرب الأولى يضم عناصر تنتمي الى الطبقة البرجوازية الكبيرة و الصغيرة [٢] . كذلك كانت الطبقة البرجوازية في المدن أول من استجاب لنداء الثورة بعد نفي سعد زغلول و رفاقه الى مالطة ، و تصدرت الطبقة المثقفة النضال و قادته منذ البداية [٣] . فبدأ الاضطراب في القاهرة على يد الطلبة ، حيث أضرب طلبة الحقوق أولا ، ثم تبعهم طلبة الهندسة و الزراعة و الطب و التجارة ، و سار الجميع في مظاهرة انضم اليها طلبة دار العلوم و مدرسة القضاء الشرعي و الالهامية الثانوية و غيرها . كما انضم طلبة الأزهر و المدارس الأخرى و خصوصا الثانوية الى الحركة في اليوم التالي [٤] .
و اشترك المحامون في الحركة في اليوم الثالث (١١ مارس) ، و أصدروا قرارا بالاضراب احتجاجا على رفض الحكومة البريطانية السماح للوفد بالسفر ، و التجائها الى طريق الارهاب بالقبض على الزعماء الأربعة . أما التجار فقد أغلق معظمهم متاجرهم و أقفلت البيوت المالية أبوابها منذ يوم ١١ مارس أيضا [٥] . كما أن الموظفين قاموا في شهر ابريل باضراب انتهى بسقوط الحكومة المصرية [٦] .

---

١ . نفسه ، ص ٤١ — ٤٥ .
٢ . نفسه ، ص ١٠١ .
٣ . نفسه ، ص ١٣٠ .
٤ . عبد الرحمن الرافعي ، ثورة سنة ١٩١٩ (جزءان ؛ القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٦) الجزء الأول ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .
٥ . نفسه ، ص ١٢٩ و ١٣٢ — ١٣٣ .
٦ . رمضان ، تطور الحركة الوطنية . . . ، ص ١٥٣ .

ويشير رمضان الى الصبغة البرجوازية الفاقعة للجنة الوفد العامة التي كانت تتكون من تجار ومحامين وأطباء وأصحاب أقلام[1] . وقد قامت تنظيمات الوفد المختلفة ذات الصبغة البرجوازية أيضا بدور فعال في ثورة ١٩١٩ في مرحلتيها العنيفة والسلمية ، وفي مقاطعة لجنة ملنر التي أرسلتها الحكومة الانكليزية لتقصي حقائق الوضع في مصر[2] . واتخذت زعامة الوفد موقفا متصلبا نسبيا من قضية الاحتلال والحماية الأمر الذي أدى الى انشقاق في قيادته ، وخروج العناصر المعتدلة منه التي شكلت فيما بعد حزب الأحرار الدستوريين[3]. وهكذا جاء تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ودستور سنة ١٩٢٣ مخالفين للارادة الحقيقية للأمة وانتصارا لعناصر البرجوازية الكبيرة وكبار الملاك والرأسماليين والملك[4] . وذلك بعد نفي سعد للمرة الثانية في ديسمبر ١٩٢١ وخلو الساحة لتلك العناصر المدعمة بالاحتلال . وكان ذلك بداية انتكاس الحركة الوطنية .

× ويلخص عيساوي الوضع السياسي في مصر بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٥٢ فيقول ان المسرح السياسي في تلك الفترة كانت تسيطر عليه فئات أربع هي : أولا — الملك الذي كان مصمما على أن يملك ويحكم . وكان محاطا بحزب الاتحاد المكون من اصدقاء العرش ويتزعمه يحي ابراهيم وتوفيق نسيم وأحمد زيور وحسن نشأت وعبد الفتاح يحي وزكي الأبراشي وعلي ماهر وحسن صبري وحسين سري باشا . ثانيا — الوفد يتزعمه سعد زغلول باشا ثم النحاس باشا . وكان يمثل الوطنية المناضلة والرغبة

---

١ . نفسه ، ص ١٥٨ .

٢ . راجع المرجع نفسه ، ص ١٥٣ — ١٨٧ (التنظيمات الثورية) ، وص ٢٣٤ — ٢٤٠ (لجنة ملنر في مصر)

٣ . تم تشكيل هذا الحزب في اكتوبر ١٩٢٢ . راجع ظروف وملابسات انشقاق الوفد في رمضان ، ص ٣١٦ — ٣٢٦ ، وظروف تأليف الحزب الجديد ، ص ٣٧٢ — ٣٧٩ .

٤ . راجع نصوص التصريح في رمضان ص ٣٦٠ — ٣٦١ ، وظروف صدور الدستور ومضامينه الاجتماعية ص ٣٧٢ — ٣٩٨ .

في الاستقلال ، ويدعمه ليس فقط الطبقات المصرية الجديدة الحاكمة بل أيضا جمهور الشعب. ثالثا ــ الجماعات التي كانت تشير اليها الصحافة البريطانية بالمعتدلة كالأحرار الدستوريين ، وحزب الشعب، والسعديين (الوفديين المنشقين) ، ويتزعمها عدلي يكن وثروت ومحمد محمود واسماعيل صدقي وأحمد ماهر والنقراشي وعبد الهادي باشا. وكان هؤلاء يمثلون ، بوجه عام ، قطاعات السكان الأغنى والأكثر محافظة ، وقد تكونت هذه الجماعات نتيجة انشقاقات متتالية عن الوفد الذي كانت تختلف عنه في قبولها الأكبر للمساومة مع انكلترة ، وتكيفها الأشد في علاقاتها مع الملكية. وكان حزب الكتلة يمثل مركزا خاصا بين هذه الجماعات، وقد استمد مبرر وجوده من كونه متنفسا لطاقة مكرم عبيد باشا المتقد الذكاء. ووجدت أخيرا دار المندوب السامي البريطاني التي كانت لها الكلمة الأخيرة في الأغلب"[1] .

ويضيف عيساوي أن أية انتخابات حرة ــ ومعظم وليس جميع الانتخابات كانت حرة ــ كانت تنتهي بصورة دائمة بنصر جارف للوفد ، ويتبع ذلك نزاع مع القصر ينتهي باستقالة الوفد ، أو عزله عن الحكم ، ثم حل البرلمان وتعليق الدستور أو تعديله ، ويظل الوفد معارضا حتى يدعى من جديد الى السلطة اما بسبب خصام يقع بين القصر والمعتدلين (سنة ١٩٢٥ مثلا)، أو نتيجة تبدل الرأي في انكلترا (سنوات ١٩٣٠ و ١٩٣٦ و ١٩٤٢) ، كما أن الانشقاقات من الوفد توالت، الا أن الكفاح من أجل الاستقلال الذي ميز الوفد عن غيره من الأحزاب، والمركز المستمد من ذكرى زغلول ، بالاضافة الى تنظيمه الفعال ، واهتمامه الأكبر نوعا ما بمصلحة البرجوازية الصغيرة والجماهير ضمنت تفوقه[2] .

---

١) Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 260-261.

٢. نفسه ، ص ٢٦١ .

ويحلل صفران اخفاق الحكم الدستوري في مصر في الفترة ذاتها ، فيرده الى ضعف البرجوازية المصرية وتأخر ظهورها وهي الطبقة ذات المصالح المتعارضة مع الطبقة المسيطرة ، والمستفيدة من الفكرة الديمقراطية ، ومجيء هذه الفكرة المتأخر الى مصر حيث أنها كانت نتيجة الحركة الوطنية وليس العكس كما هي الحال في البلدان الغربية. وهكذا " فان عدم وجود تصادم في المصالح بين الفئة التي حملتها الى السلطة موجة الوطنية في وقت متأخر وبين الملاك المسيطرين أدى الى اندماج الجماعتين معا بعد فترة وجيزة ، وترك البرامج والسياسات الداخلية للأحزاب المختلفة محابية لمصلحة الملاك ، وقليلة الاختلاف فيما عدا ذلك ، وحول السياسة الى صراع لا هوادة فيه من أجل السلطة بين أشخاص قليلين ومؤيديهم"[١].

وقد أدى هذا الوضع السياسي المتسم بالفوضى والضياع والمتفاعل مع وضع فكري مشابه الى تحويل المجتمع الى مجموعة أفراد يعيش كل منهم لذاته[٢]. كما أن تدهور سمعة الوفد وشعبيته بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ قوى الاتجاه الفردي[٣].

---

١. Safran, Egypt in Search of Political Community, P. 246-247.

٢. Jamal Moh'd Ahmad, The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism (London: Oxford University Press, 1960), P. 121.

٣. يشير جمال محمد أحمد في المرجع نفسه ، ص ١٢١ ، الى توفيق الحكيم وكتابه من برجنا العاجي كمثل على الاتجاه الفردي الذي لا يرى أملا في المستقبل أو فائدة في الكتابة كردة فعل للأوضاع في الثلاثينات تلك الفترة من تاريخ مصر التي ضاع فيها الهدف. ويشير محفوظ نفسه في احدى المقابلات التي أجريت معه الى أنه وعادل كامل واحمد زكي مخلوف من كتاب جيله كانوا يعانون من "أزمة نفسية غريبة جدا طابعها التشاؤم الشديد والاحساس بعدم قيمة أي شيء في الدنيا والعبث". ويضيف " ولعل منشأ هذه الحالة راجع الى تبلور كل هذه الصفات في حياتنا السياسية وقتذاك ، فكدنا ننتهي الى أن كل جهد يبذل في الأدب ضائع تماما ولا قيمة له . ." (دوارة ، "رحلة الخمسين . ." ، ص ٢١).

وجعل الطريق ممهدا لظهور جماعات سياسية جديدة كان أبرزها جماعة الاخوان المسلمين والحزب الشيوعي المصري . وقد أبرز محفوظ في قصصه الواقعية حقائق الوضع السياسي في مصر في الفترة الممتدة بين عامي ١٩١٧ و ١٩٤٤ — وهي الفترة التي تغطيها الثلاثية — وانعكاسات ذلك الوضع على شخصيات تلك القصص المنتمية الى الطبقة الوسطى .

الطبقة الوسطى والاحتلال — ثورة ١٩١٩.

كان الاحتلال مشكلة بالنسبة للطبقة الوسطى المصرية من ناحيتين : أولا — لأن هذه الطبقة كانت أكثر وعيا لقضية الاستقلال ومعناه السياسي من غيرها بسبب ثقافة أبنائها . وثانيا — لأن منافسة الأجانب لهذه الطبقة على الوظائف والعمل الحر جعل لها مصلحة حقيقية في التخلص منه . وقد حكى لنا محفوظ في بين القصرين قصة ثورة ١٩١٩ ومشاركة عائلة أحمد عبد الجواد التاجر الصغير فيها ، وكان دقيق الفهم للأوضاع في مصر تحت الاحتلال ولموقف البرجوازية الصغيرة منه حين جعل رب العائلة مؤيدا للحزب الوطني الشديد التطرف في موقفه من الاحتلال ، والمؤيد للخلافة التركية وللخديوي ، وممثلا بالتالي للمرحلة الوطنية الأولى في مصر . نشأت العاطفة القومية مع صباه فيما تلقته من أحاديث البطولة التي رواها السلف عن عرابي ، ثم اتقدت جذوتها بمقالات اللواء" وخطبه [1] . ونحس كابوس الاحتلال جاثما على صدور الناس في أواخر الحرب الأولى ، يمثله الجنود الأستراليون " الذين ينتشرون في المدينة كالجراد ويعيثون في الأرض الفساد . . . يسلبون الناس متاعهم جهارا ويتسلون بصب ألوان الاعتداء والاهانة عليهم بغير رادع" [2] . ويروي أحمد عبد

---

١ . بين القصرين ، ص ٣٨٠ .

٢ . نفسه ، ص ١٧ .

الجواد كيف أنه كان سائرا في الموسكي فاعترض سبيله جنديان أستراليان و طالباه بما معه فما كان منه الا أن نفض لهما جيوبه ، و أخرج الشيء الوحيد الذي كان معه و هو كوز ذرة ، فتناوله أحدهما و ركله كالكرة و خطف الآخر عمامته و حل الشال و مزقــــه و رمى به في وجهه [١] . و في مجلسه مع أصحابه تحذرهم العالمة من رفع أصواتهـــم : " خفضوا أصواتكم أو بيبتنا الانجليز في السجن ." [٢] . و في وجه الاحتلال كان انتصار تركيا في الحرب أمل الناس من هذه الطبقة لما يعنيه ذلك من خروج الانكليز و الاستراليين وعودة الخديوي عباس ، و نسمع الشيخ متولي عبد الصمد يصلي : " ـ ثم أسأل اللــه المنان أن يعيد الينا أفندينا عباس مؤيدا بجيش من جيوش الخليفة لا يعرف له أول من آخر . . و أن يمنى الانجليز و أعوانهم بهزيمة منكرة فلا تقوم لهم بعدها قائمة" [٣] .

و يؤمن فهمي عبد الجواد ـ طالب الحقوق ـ بمبادئ الحزب الوطني أيضا . فنراه واثقا من انتصار ألمانيا في الحرب ، و مهتما بالتخلص من كابوس الانكليز و بعودة الخلافة الى سابق عظمتها كي تتمهد طريق الاستقلال أمام المصريين [٤] . و لكن آماله تخيب عندما يهزم الألمان " غلب الألمان ! . . من كان يتصور هذا ؟ ! . . لا أمل بعد اليوم في أن يعود عباس أو محمد فريد ، كذلك آمال الخلافة قد ضاعت ، لا يزال نجم الانجليز في صعود و نجمنا في أفول فله الأمر . ." [٥] الا أن هنالك فرقا بين وطنيـــة الأب ووطنية الابن ، فالاب " قنع دائما من "وطنيته" بالعاطفة و المشاركة الوجدانيــة دون الاقدام على عمل يغير وجه الحياة الذي آنس اليه فلا يرضى عنه بديلا ، لذلــك

---

١ . نفســـه ، ص ٤٨ .

٢ . نفســـه ، ص ١١٧ .

٣ . نفســـه ، ص ٤٨ .

٤ . نفســـه ، ص ٦٦ ـ ٦٧ .

٥ . نفســـه ، ص ٣٦٦ .

لم يدر له بخلد أن ينضم الى لجنة من لجان الحزب الوطني على شدة تعلقه بمبادئه، ولا حتى أن يجشم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته." [١] أما الابن فكانت أحاديث الوطنية تثير أكبر الأحلام في نفسه "في دنياها الساحرة تتراءى لعينيه دنيا جديدة، ووطن جديد، وبيت جديد، وأهل جدد، ينتفضون جميعا حيوية وحماسا" وكان يضايقه ما يرى من فتور وسذاجة وعدم مبالاة في عائلته، فتشب في أضلعه نار الحسرة والألم ولا يجد متنفسا الا في الاجتماع باخوانه من الطلبة حيث يروي ظمأه الى الحماس والحرية " ويسمو في وقدة حماسهم الى ذلك العالم الكبير من الأحلام والمجد" لم يكن يدري ماذا يمكن أن يصنع " ولكنه يشعر بكل ما في قلبه من قوة بأن ثمة ما يجب عمله، ربما لم يجده ماثلا في عالم الواقع، ولكنه يشعر به كامنا في قلبه ودمه، فما أجدره أن يبرز الى ضوء الحياة والواقع أو فلتمض الحياة عبثا من العبث وباطلا من الأباطيل." [٢] أما ياسين أخو فهمي الأكبر فكان كوالده " يعطف على آمال أخيه ولكن في هدوء متسم بقلة الاكتراث، تمنى مثله أن ينتصر الألمان وبالتالي الترك وأن تسترد الخلافة سابق عزتها، وأن يعود عباس ومحمد فريد الى الوطن ولكن أمنية من هذه الأماني لم تكن لتشغل قلبه في غير أوقات الحديث عنها" [٣]. وأما الأم فما كانت تفقه للوطنية معنى،

ــ وكيف يطلبون اخراجهم (اي الانجليز) من ديارنا بعد اقامة طالت هذا الدهر كله؟! لقد ولدنا وولدتم وهم

---

١. نفســه، ص ٣٧٦.

٢. نفســه، ص ٣٧٤.

٣. نفســه، ص ٦٦.

> في بلادنا فهل من "الانسانية" ان نتصدى لهم بعد ذاك العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة — وفي بلادهم أيضا — أخرجوا ؟ !١

وبعد خيبة الأمل الناتجة عن هزيمة تركيا في الحرب، برز أمل جديد متمثل في "الوفد" الذي شكله سعد زغلول للمطالبة بالاستقلال . ويصور محفوظ ببراعة الأثر الذي تركته هذه الخطوة الجديدة في نفوس الناس،

> ... لم يكن شيء في السماء ولا في الأرض قد خرق المألوف مما اعتاد السيد أن يراه كل يوم، ولكن نفس الرجل، والأنفس الموصولة بنفسه وربما أنفس الناس جميعا تعرضت لموجة عاتية من الانفعال والشعور خرجت بها عن طورها أو كادت حتى قال السيد انه لم تمر به أيام كهذه الأيام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفقت قلوبهم باحساس واحد . فهو الذي يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبدأه هو بالحديث نقل اليه في اسهاب ما اتصل بعلمه عن مقابلة سعد لنائب الملك، وفي مساء اليوم نفسه، وفي مجلس الطرب، اكد نفر من الصحابة أن الخبر حقيقة لا يرتقي اليها الشك، وفي دكانه حدث اكثر من مرة أن خاض زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق في حديث المقابلة ... ٢

ونعلم أن الوفد قد ضم بالاضافة الى سعد كلا من عبد العزيز فهمي بك وعلي شعراوي باشا، وأنه توجه الى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال . كما طالب بالسفر الى لندن للسعي الى الاستقلال[٣] . ونعلم أيضا أن سعد كان وكيلا للجمعية التشريعية وأن الآخرين كانا عضوين فيها، وأن

---

١ . نفسه، ص ٣٧٢ .

٢ . نفسه، ص ٣٧٥ .

٣ . نفسه، ص ٣٦٨ — ٣٧٠ .

الطلبة الوطنيين كانوا يختلفون في سعد كثيرا " منهم من يعده ذنبا من أذناب الانجليز ولا شيء أكثر من هذا ، ومنهم من يقر له بمزايا عظيمة جديرة بأن ترفعه الى مصاف رجال الحزب الوطني أنفسهم" ولكنهم جميعا يباركون الخطوة التي أقدم عليها مع زميليه والتي يقال انه كان الداعي اليها كذلك لأنها "عمل مجيد لعله لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفي المبرزين من الوطنيين وعلى رأسهم محمد فريد . . ."[١] كذلك نسمع بالتوكيلات[٢] التي عمد اليها الوفد ليثبت أنه يتكلم باسم الأمة عندما سأله المندوب السامي عن الصفة التي كلمه بها . ويسر أحمد عبد الجواد ورفاقه من التجار بهذه التوكيلات،

> . . .أمسك السيد بالقلم ووقع بامضائه في سرور تجلى في تألق عينيه الزرقاوين وهو يبتسم ابتسامة رقيقة نمت عن شعوره بالسعادة والخيلاء اذ يوكل عن نفسه سعدا وزملاءه ، أولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على حداثة شهرتهم حيث حركوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالدواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم استعصى علاجه بالرغم من استعماله لأول مرة . . .[٣]

---

١. نفســـه ، ص ٣٦٩.

٢. يثبت المؤلف نص التوكيل في بين القصرين ، ص ٣٧٧ وقد جاء فيه ما يلـــي : "نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات: سعد زغلول باشا وعلي شعراوي باشا وعبد العزيز فهمي بك ومحمد علي علوبة بك وعبد اللطيف المكباتي ومحمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد بك ، ولهم أن يضموا اليهم من يختارون ،في أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعي سبيلا في استقلال مصر استقلالا تاما".

٣. نفســـه ، ص ٣٧٧.

ويسرون أيضا لأنه انضم الى الوفد من رجال الحزب الوطني محمد علي علوبة بك وعبد اللطيف المكباتي [١]. ويقرون أن سعد أثبت دائما أنه جدير باعجاب المعجبين، وأن حركته الأخيرة خليقة بأن تحله من القلوب في أعز مكان [٢]. وتشرق أنفسهم بالآمال، وتنفض قلوبهم الغبار عن جوهرها، وتصير أحاديث السياسة "مزة" الشراب والطرب بالنسبة اليهم [٣]. وهكذا يضحي نضال الوفد من أجل الاستقلال المصب الجديد لآمال هذه الطبقة خالفا الحزب الوطني الذي لم يلعب دورا فعالا بعد الحرب الأولى كما سبقت الاشارة.

ونسمع فهمي يملي على أخيه الأصفر كامل جزءا من خطبة سعد أمام سلاطين الاحتلال في جمعية الاقتصاد والتشريع: "أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية، فهي حماية باطلة لا وجود لها قانونا بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي **بنهايتها**" [٤]. وقد جاءت هذه الخطبة ردا على منع الوفد من السفر " وبعد أن استقال رشدي باشا من الوزارة فخيب السلطان المأمول بقبول استقالته . . ." [٥] كما يثبت محفوظ نص رسالة الوفد الى السلطان [٦].

---

١. نفسه، ص ٣٧٨. كذلك انضم الى الوفد محمد محمود وأحمد لطفي السيد فصار يتألف من سبعة أعضاء. وانضم اليه بعد ذلك سبعة أعضاء جدد فبلغ عدد أعضائه أربعة عشر عضوا.

٢. نفسه

٣. نفسه، ص ٣٨٠.

٤. نفسه، ص ٣٩٥.

٥. نفسه، ص ٣٩٦.

٦. نفسه، ص ٣٩٦ — ٣٩٨.

و تعلن الأحكام العرفيه بعد استقالة الوزارة ، و يعتقل سعد و صحبه و ينفون الى مالطة ، و يكون لنفيهم وقع أليم في نفوس أحمد و صحبه يلتقط محفوظ آثاره بمهارة ،

أثار " النفي " في نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من ذكريات قديمة أسيفة عن عرابي باشا و نهايته ، فتساءلوا و هم لا يملكون قلوبهم من الجزع : أيجري نفس المصير على سعد زغلول و صحبه ؟ . . . أينقطع حقا ما بينهم و بين الوطن الى الأبد ؟ . . . أتموت هذه الآمال الكبار و هي لا تزال في مهد الأزهار ؟ . . . و شعر السيد بحزن لم يشعر بمثله من قبل ، حزن ثقيل غليظ شاع في صدره كما يشيع الغثيان ، فعانى تحت وطأته خمودا و همودا و اختناقا و جعلوا يتبادلون نظرات ساهمة واجمة ، ناطقة بغير لسان ، صارخة بلا صوت ، ثائرة بلا صخب ، و في الريق مرارة واحدة ، ثم جاء في أثر الفار صاحب و ثان و ثالث مرددين نفس النبأ آملين أن يجدوا عند الآخرين مسكنا لما يستعر في نفوسهم ، فلا يظفرون الا بالحزن الصامت و الوجوم الكئيب و الثوران الكظيم [1] .

ثم تبدأ الثورة . يبدأها طلاب القانون و فهمي عبد الجواد واحد منهم ،

. . . هانت الحياة كوسيلة حتى لم تعد تزن ذرة ، و جلت كغاية حتى وسعت السماوات و الأرض ، و تآخى الموت و الحياة فكانا يدا واحدة في خدمة أمل واحد ، هذه تؤيده بالجهاد و ذاك يؤيده بالفداء ، لو أن الانفجار الرهيب لم يقع لمات غما وكمدا ، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة سيرها الهادىء الوئيد على أطلال الرجال و الآمال ، كان لا بد من انفجار ينفس عن صدر الوطن و صدره كالزلزال الذي ينفس عن أبخرة باطن الأرض المتجمعة ، فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فألقى نفسه في خضمها . . . [2]

---

١ . نفسه ، ص ٤٠٢ .

٢ . نفسه ، ص ٤٠٩ .

و يصف محفوظ أحداث اليوم الأول من الثورة و انعكاساتها على فهمي : تجمع طلبة القانون و خطبهم و هتافاتهم و سيرهم في مظاهرة متوجهة الى مدرسة المهندسخانة ثم الزراعة فالطب فالتجارة " و ما بلغوا ميدان السيدة زينب حتى انتظمتهم مظاهـــرة كبيرة انضمت اليها جموع الأهالي وتعالى الهتاف لمصر و الاستقلال و سعد ، وكلما تقدموا خطوة ازدادوا حماسة وثقة و ايمانا بما يلقون في كل مكان من مشاركة تلقائيـــة و استجابة بديهية ، و ما يصادفون من نفوس متحفزة تصدعت بالغضب حتى وجدت فـي مظاهرتهم المتنفس. "[١] وتصدى البوليس للمظاهرة و اعتقل طلابا كثيرين .

وكان اليوم الثاني (يوم الاثنين) "يوم اضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس بأعلامها و حشود من الأهالي لا يحيط بها الحصر . . . و سارت المظاهرة سيرا مشهودا مارة بدور المعتمدين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات، حتى بلغت شـارع الدواوين و هناك سرت بين الجموع موجة اضطراب عنيفة و صاح صائحهم: " الانجليز! "، و ما لبث أن فرقع الرصاص مغطيا على أصوات الهاتفين فسقط أول القتلى ، و واصـــل قوم تقدمهم في حماس جنوني ، و تسمر آخرون ، و تفرق كثيرون يلوذون بالبيوت و المقاهي ، و كان هو (فهمي) ضمن الآخرين"[٢].

" و جاء الثلاثاء و الأربعاء فكانا كالأحد و الاثنين . . . مظاهرات فهتـــاف فرصاص فضحايا . . . و ما لبث أن أضرب عمال الترام و سائقو السيارات و الكناسون فبدت العاصمة حزينة غاضبة موحشة . وترامت الأخبار حاملة البشرى بقرب اضراب المحامين و الموظفين"[٣]. و يمتلأ قلب فهمي بالايمان و الأمل و يستهين بالموت " سيان أن أحيى

---

١ . نفســـه ، ص ٤١١ .

٢ . نفســـه ، ص ٤١٢ .

٣ . نفســـه ، ص ٤١٣ .

أو أموت، الايمان أقوى من الموت، والموت أشرف من الذل ، فهنيئا لنا الأمل الذي هانت الى جانبه الحياة، أهلا بصباح جديد من الحرية ، و ليقض الله بما هو قاض...»[1]

و تتوالى المظاهرات و يتوالى سقوط القتلى و نسمع عن المعسكرات التي أقامها الجنود الانكليز في الأحياء وعن " قطع السكك الحديد و التلغرافات و قيام المظاهرات في شتى المديريات و المعارك التي تنشب بين الانجليز و الثوار و المذابح و الشهداء و الجنازات الوطنية التي تشيع فيها النعوش بالعشرات و العاصمة المضربة طلبتها وعمالها و محاموها و التي لم يعد بها من وسيلة للمواصلات الا العربات الكارو" كما نسمع باشتراك النساء في المظاهرات[2].

و يشترك فهمي في الثورة اشتراكا فعليا. يسير في المظاهرات و يوزع المنشورات، و يعمل عضوا في لجنة الطلبة التنفيذية. و يكتشف والده ذلك بالصدفة فيحاكمة على جهاده، و يأمره بأن يقطع كل صلة بينه و بين الثورة. ولكن فهمي يرفض أن يقسم على القرآن بأن يترك الثورة لأنه لا يستطيع أن يتخلف عن اخوانه و لا تطيب له الحياة ان فعل، و لأن حياته تهون في سبيل الوطن و هي ليست أحسن من حيوات الذين استشهدوا في المظاهرات[3]. و هنا أيضا يتجلى الاختلاف بين وطنية الابن و وطنية الأب الذي يؤيد الثورة من بعيد و بقلبه و ماله فقط،

---

١. نفسه، ص ٤١٤.

٢. نفسه، ص ٤٢٨.

٣. نفسه، ص ٤٨٨.

... انه لا يحتقر المجاهدين ، هو أبعد ما يكون عن ذلك ، طالما تابع أنباءهم بحماس ودعا لهم عقب كل صلاة بالتوفيق ، طالما ملأته اخبار الاضراب والتخريب والمعارك أملا واعجابا ، ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف اذا صدر عمل من هذه الأعمال عن ابن من ابنائه ، كأنهم جنس قام بذاته خارج نطاق التاريخ ، هو وحده الذي يرسم لهم الحدود لا الثورة ولا الزمن ولا الناس، الثورة وأعمالها فضائل لا شك فيها ما دامت بعيدة عن بيته . . فاذا طرقت بابه ، واذا تهددت أمنه وسلامة وحياة أبنائه ، تغير طعمها ولونها ومغزاها ، انقلبت هوسا وجنونا وعقوقا وقلة أدب، فلتشتعل الثورة في الخارج ويشارك فيها هو بقلبه كله ، وليبذل لها ما في وسعه من مال ، وقد فعل ولكن البيت له وحده دون شريك ، ومن تحدثه نفسه — فيه — بالاشتراك في الثورة فهو ثائر عليه هو لا على الانجليز . . . [١]

وهكذا يبقى فهمي الثائر الحقيقي الوحيد في عائلته . والدته لاترى في وجود الانكليز ضررا يصيب أمة محمد ، وتقول لابنها " اذا رأى باشواتنا أن يخرج الانكليز من مصر فليخرجوهم بأنفسهم"[٢] . وياسين لا يجد حرجا في التوفيق بين حب الوطن وحب السلامة ، واذا شق التوفيق بينهما قدم حب السلامة[٣] . ونراه ينظر الى أمر الثورة من زاوية ضيقة " من حسن الحظ أن الباسل باشا من المنفيين ، انه شيخ قبيلة مرهوبة الجانب ولاأظن رجاله يسكتون على نفيه . . ."[٤] ويشارك فقط في المظاهرات السلمية التي أعقبت الافراج عن سعد . أما كمال فكان أصغر من أن يفقه معنى الأحداث الجارية حوله . ومن هنا جاء احساس فهمي بالغربة بين أهله وذويه .

---

١ . نفسه ، ص ٤٨٣ .

٢ . نفسه ، ص ٤٠٠ .

٣ . نفسه ، ص ٥٥٧ .

٤ . نفسه ، ص ٤٠٥ .

وبالافراج عن سعد يوم ٧ ابريل ١٩١٩ تدخل الثورة مرحلة جديـــدة. ويعلق فهمي على ذلك بقوله: "ـ لو لم يسلم الانجليز بمطالبنا لما أفرجوا عـن سعد، سوف يسافر الى اوربا ثم يعود بالاستقلال، هذا ما يؤكده الجميع، ومهما يكن من أمر فسيبقى يوم ٧ ابريل سنة ١٩١٩ رمزا لانتصار الثورة"[١].

ويصور محفوظ رد فعل الشعب المصري تجاه هذه الخطوة: في طريـــق النحاسين حيث تقوم دكان أحمد عبد الجواد "تعالت ضجة فجائية وفدت من بعيد في بادئ الامر كهدير الأمواج ثم غلظت واشتدت حتى صارت بعزيف الريح أشبـــه وقد لفت الحي كله قريبه وبعيده... ووقف السيد على عتبة الدكان مقلبا عينيـــه في أنحاء الطريق بقلب ارتد الى براءة الطفولة وبهجتها، طالع أثر الخبر السعيد في كل مكان... في الدكاكين التي سدت مداخلها بأصحابها وزبائنها وهـــم يتبادلون التهاني، في النوافذ التي تزاحمت فيها الأحداث وانطلقت الزغاريـــد من وراء خصاصها، في المظاهرات التي تألفت ارتجالا ما بين النحاسين والصاغـــة وبيت القاضي هاتفة قلوبها لسعد، وسعد وسعد ثم سعد، في المآذن الـــتي اعتلى المؤذنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون، في العربات الكارو التي تجمعت بالعشرات حاملة المئات من النسوة المتلفعات بالملاءات اللف وهن يرقصن ويرددن الأغاني الوطنية، لم يعد يرى الا آدميين أو بالأحرى هاتفين، اختفت الارض وتوارت الجدران وتعالى الهتاف لسعد في كل مكان كأنما الجو قد انقلب اسطوانة هائلـة تدور بلا توقف مرددة اسمه..."[٢] ويعلق أحمد صورة سعد تحت البسملة بعـــد أن ذهب زمن الخوف، ويبوح فهمي بأسرار اشتراكه في الثورة لوالدته، ويســـأل

---

١. نفســـه، ص ٥٥٦.

٢. نفســـه، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤.

والده الصفح عنه لما بدر منه سابقا من عصيان . ويقول الأب لنفسه : " ليته (أي فهمي) اشترك في الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتى اليوم، سأقول من الآن فصاعدا انه خاض غمار الثورة . . . "[١] ولكن النهاية الحزينة كانت تنتظر فهمي اذ استشهد في المظاهرة السلمية التي قامت ابتهاجا بالافراج عن سعد . ويلتقط محفوظ بطريقة رائعة حقا مشاعر فهمي أثناء المظاهرة وحتى سقوطه ،

> . . . أهرب، ما من الهرب بد ، ان لم يقتلك الرصاص فتلتك
> الأذرع والأقدام. هم بالهرب او بالتراجع او حتى التحول
> عن موقفه ولكنه لم يفصل شيئا ، ما وقوفك ، وقد تشتت الجمع؟!
> في خلاء أنت، أهرب. صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة
> وانية متراخية. ما أشد الضوضاء ، ولكن بم علا صراخها ؟
> هل تذكر؟ ما أسرع ما تفلت منك الذكريات. ماذا تريد ؟
> أن تهتف؟ أي هتاف؟ او هو نداء فحسب. . . من؟ ما ؟
> في باطنك يتكلم، هل تسمع؟ هل ترى؟ ولكن أين ؟
> لا شيء ، لا شيء ، ظلام في ظلام ، حركة لطيفة تطرد بانتظام
> كدقات الساعة ينساب معها القلب. . . تصاحبها وشوشة ،
> باب الحديقة. . . أليس كذلك؟ يتحرك حركة تموجية سائلة ،
> يذوب رويدا ، الشجرة السامقة ترقص في هوادة ، السماء. .
> السماء؟ منبسطة عالية. لا شيء الا السماء هادئة باسمة
> يقطر منها السلام. . . [٢]

وبموت فهمي في أعقاب الافراج عن سعد ينتهي الجزء الأول من الثلاثية وتنتهي مرحلة من مراحل كفاح الطبقة الوسطى المصرية كان الاحتلال فيها العدو الاول . ولكن شبح الاحتلال لا يغيب تماما بعد ذلك بل يظل يظهر مساندا للأرستقراطية وحاكما فعليا له الكلمة الأخيرة برغم كل مظاهر الاستقلال .

---

١ . نفسه ، ص ٥٤٤ .

٢ . نفسه ، ص ٥٧٢ .

وقد لاحظنا في هذه المرحلة الأولى العاطفية التي اتسمت بها مواقف أفراد هذه الطبقة، وتقلب مشاعرهم السريع والعنيف بين اليأس والأمل وفقا لتقلب الأوضاع، واتجاههم نحو عبادة البطل وربما كان ذلك تعويضا لشعور بالعجز تجاه الاحتلال وكبت للمشاعر طويل. كذلك لاحظنا اختلاف موقف فهمي الطالب المثقف من الثورة والعمل السياسي عن موقف والده حيث اتجه الى المشاركة الفعلية في الثورة وأخذ مفهوم الوطنية معنى أكثر تحديدا عنده، وان كان ظل غير واضح الهدف تماما ولم يخل شعوره من رومانسية وعاطفية.

الطبقة الوسطى والأرستقراطية ـ الصراع على السلطة

كان على الوفد الممثل للطبقة الوسطى المصرية أن يحارب على جبهتين بعد توليه الحكم في أعقاب فوزه الساحق في انتخابات يناير ١٩٢٤: جبهة الانكليز، وجبهة الملك والأرستقراطية المصرية التي شكلت لنفسها حزبا أسمته حزب الأحرار الدستوريين. ويصور محفوظ في الجزء الثاني من الثلاثية النزاع الذي كان قائما بين الوفد والأحرار الدستوريين من خلال مناقشات كمال عبد الجواد مع أصحابه: حسن سليم واسماعيل لطيف وحسين شداد. فسعد زغلول لم يكن، في نظر حسن سليم، الا مهرجا شعبيا يسخر من سياسته ومأثوراته البلاغية" منوها في الوقت نفسه بعظمة عدلي وثروت ومحمد محمود وغيرهم من الأحرار الدستوريين الذين لم يكونوا في نظر كمال الا "خونة" او انجليز مطربشين!"[١] وقطع سعد للمفاوضات مع الانكليز هو، في رأي كمال، موقف وطني جدير بسعد حقا، لأن سعد "طالب بحقوقنا الوطنية مترفعا عن المساومة. ثم قطع المفاوضة حين وجب قطعها، وقال قولته الخالدة: "لقد دعونا الى هنا لكي ننتحر، ولكننا رفضنا الانتحار، وهذا

---

١. قصر الشوق، ص ١٧٠.

كل ما جرى"[١] . في حين يعلق اسماعيل لطيف بقوله : " لو قبل أن ينتحر لتوج حياته بأجل خدمة يمكن أن يؤديها الى بلاده !"[٢] . وحسن سليم يعتبر أن الأحرار الدستوريين الذين يعملون في صمت حققوا للوطن الفائدة الوحيدة التي جناها في تاريخه الحديث — أي الغاء الحماية — وأن سعد لم يفد بكلامه الأمة شيئا[٣]. ويرد عليه كمال ،

— أنت تقلل من شأن الكلام كأنه لا شيء ، الحق أن أخطر ما تمخض عنه تاريخ البشرية من جلائل الأمور يمكن ارجاعه في النهاية الى كلمات ، الكلمة العظيمة تتضمن الأمل والقوة والحقيقة . نحن نسير في الحياة على ضوء كلمات ، على أن سعد ليس صانع كلمات فحسب ، ان سجله حافل بالأعمال والمواقف ! [٤]

وواقع الحال في مصر يمكن تلخيصه ، في رأي حسن سليم ، في كلتين" وهما : أن سعد يأبى أن يقوم في مصر من يتكلم باسمها غيره ولو كان خير الرجال وأحكمهم !" ويتلخص ، في رأي كمال ، في كلمة واحدة هي "أن ليس في مصر من يتكلم باسمها الا سعد ، وأن التفاف الأمة حوله جدير في النهاية بأن يبلغ بها ما ترجو من الآمال . . ."[٥]

ويظهر محفوظ الاحتقار الذي تكنه الارستقراطية للشعب المصري ، وتعاليها عليه ويأسها من صلاح شأنه . فاسماعيل لطيف يرى أن من يتعب نفسه في الكلام عن اصلاح مصر كالنافخ في قربة مثقوبة[٦] . ويعلق كمال على كلامه ،

---

١ . نفســـه

٢ . نفســـه

٣ . نفســـه

٤ . نفســـه ، ص ١٧٠ — ١٧١ .

٥ . نفســـه ، ص ١٧٤ .

٦ . نفســـه ، ص ١٧١ .

ـ انت لا تهمك السياسة في شيء ، لكن مزاحك يفصح أحيانا
عن موقف "فئة" من المحسوبين على المصريين كأنك ناطق
بلسانهم ، تراهم يائسين من نهوض الوطن ؛ يأس الاحتقار
والتعالي لا يأس الطموح والتطرف ، ولولا أن السياسة
مطية لأطماعهم لاعتزلوها كما تفعل أنت! [١]

ويمثل حسين شداد فئة اخرى من الارستقراطية المصرية المتعالية. فهو يحب أن يكون في فرنسا اكثر من أن يكون في مصر لأن مصر ، في رأيه ، "وطن أجل مخلفاته قبور وجثث" [٢] ويتعالى على السياسة لأنها ، في رأيه ، "تفسد الفكر والقلب ، ينبغي أن تعلو عليها حتى تتراءى لك الحياة ميدانا لا نهائيا للحكمة والجمال والتسامح ، لا معترك صراع وكيد . . ." [٣] ويرد عليه كمال ،

ـ الحياة هي هذا كله ، هي الصراع والكيد والحكمة والجمال ،
فأي وجه تجاهلته من وجوهها تفقد به فرصة لاستكمال فهمك لها
وقدرتك على التأثير فيها بما يوجهها نحو الأحسن . لا تحتقر
السياسة أبدا ، فالسياسة هي نصف الحياة ، أو هي الحياة كلها
اذا عددت الحكمة والجمال مما فوق الحياة . . . [٤]

على أن تعالي حسين على السياسة وادعاءه انه محايد لا من الوفديين ولا من الدستوريين لا يخفي شعوره الطبقي المتعالي ،

. . . سعد وعدلي وعدلي وسعد ، ما أسخف هذا كله ، على
أنه اذا كان سعد وعدلي سيين عندي في الناحية السياسية
فانني لا أراهما كذلك كرجلين ، اذ لا يمكن أن أتجاهل ما
يمتاز به عدلي من كريم الأصل وعظيم الجاه والثقافة ، أما
سعد ـ واياك أن تغضب ـ فما هو الا أزهري قديم . . . [٥]

---

١ . نفسه ،

٢ . نفسه ، ص ١٦٨ .

٣ . نفسه ، ص ١٧١ .

٤ . نفسه ، ص ١٧٢ .

٥ . نفسه

وهكذا فان محفوظ لا يغفل الجانب الاجتماعي من الصراع بين الطبقة الوسطى والارستقراطية والذي بلغ مداه في التنافس بين كمال وحسن سليم على حب عايدة شداد ومخاطبة حسن لكمال بقوله : " فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار !"[١]

ويصاب الوفد بنكسة بعد اخفاق محادثات سعد مع بريطانيا ، ومقتل السير لي ستاك سردار الجيش المصري الانكليزي الجنسية في نوفمبر ١٩٢٤ ، واستقالة وزارة سعد على اثر ذلك . ويظهر موقف الأحرار الدستوريين من الحادث مما يقوله حسن سليم : " ان هذا الاعتداء مظهر للكراهية التي يضمرها البعض — ومنهم القتلة — للانجليز ، وسعد زغلول هو المسئول الأول عن تهييج هذه الكراهية !" ويلتقون بذلك مع الانكليز الذين عبروا عن الرأي ذاته[٢] . وتبدأ الارستقراطية المصرية والملك بتدعيم مراكزهم بعد ذلك . فيؤلف زيور باشا الذي كان محسوبا على الوفد الوزارة الجديدة التي خضعت لشروط بريطانيا ، وبدأت العبث بالدستور . ويبدأ الملك خطة لهدم الوفد من الداخل بحثه العناصر الارستقراطية في الوفد على الخروج منه . ويلعب حسن نشأت باشا وكيل الديوان الملكي دورا هاما في تنفيذ خطة الملك " فقد أخذ كثيرون من شيوخ ونواب الهيئة الوفدية يستقيلون منها ويسندون سبب استقالتهم الى ما ذاع أخيرا من أن الحزب الوفدي تحيط به الشكوك من جهة الاخلاص الواجب لجلالة الملك"[٣] . كما يجري تأليف حزب الاتحاد الموالي للملك

---

١ . نفسه ، ص ٢٤٦ .

٢ . نفسه ، ص ٢٠٠ .

٣ . رمضان ، تطور الحركة الوطنية ... ، ص ٥٧٢ .

والذي كان الهدف منه " امتصاص العناصر الخارجة على الوفد ، ومعها شتات الانتهازيين من كبار الموظفين والضباط المحالين على المعاش والموالين للقصر، ليتولى ملء الفراغ الذي سوف يخلفه الوفد بعد سقوطه المتوقع في الانتخابات"[١] .
ويشير محفوظ في قصر الشوق الى هذه الأحداث والى انعكاسها على نفسية كمال الوفدي المتحمس،

> ... ومن عجب أنه وجد في الحياة السياسية صورة مكبرة لحياته ، فكان يطالع أنباءها في الصحف وكأنما يطالع مواقف مما مر به في بين القصرين او العباسية. هذا سعد زغلول ــ مثله هو شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة ولخيانة الأصدقاء وغدرهم، وكلاهما ــ هو، وسعد ــ يكابدان أحزانا من اتصالهما بأناس علوا بأرستقراطيتهم وسفلوا بفعالهم. تقمص شخص الزعيم في كدره كما تقمص حال الوطن في قهره ، وكان يلاقي الموقف السياسي وموقفه الشخصي بعاطفة واحدة وانفعال واحد ، فكأنما كان يعني نفسه وهو يقول عن سعد زغلول " أتليق هذه المعاملة الظالمة بهذا الرجل المخلص؟ "؛ وكأنما كان يعني حسن سليم وهو يقول عن زيور " خان الأمانة واستحل القبيح في سبيل الاستيلاء على الحكومة"؛ وكأنما كان يعني عايدة وهو يقول عن مصر " هل تخلت عن رجلها الامين وهو يذود عن حقوقها ؟ !"[٢]

وهكذا يلعب الوضع السياسي دورا في تكثيف أزمة كمال النفسية وتسير مشكلته الخاصة في خط مواز لمشكلة الوفد ــ الوطن العامة.

---

١. نفسه ، ص ٥٧٠.

٢. قصر الشوق ، ص ٢٥٣.

ومهد ضرب الملك لحزب الأحرار الدستوريين بعد ذلك لائتلاف الأحزاب السياسية لمواجهة خطر الاوتقراطية. ويشير محفوظ الى ذلك الائتلاف، والى اجتماعات الوفد والأحرار، وخوضهم الانتخابات معا " وتحول الوفد عن خطة التطرف والتهييج الى خطة المسالمة والاعتدال، وهي السياسة التي سيظل الوفد ينتهجها طوال البقية الباقية من حياة سعد باشا زغلول"[١] والمتمثلة في تحاشيه الاصطدام مع الانكليز وتنازل سعد عن الوزارة الى خصمه القديم عدلي. وكان ذلك كله مصدر خيبة أمل لكمال[٢].

وينتهي الجزء الثاني من الثلاثية بوفاة سعد زغلول في أغسطس ١٩٢٧. ويحزن كمال لموته "... اذن مات سعد. النفي والثورة والحرية والدستور مات صاحبها. كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيه وتربيته!"[٣]. وتستمر بعد وفاته معارك الوفد مع الانكليز والارستقراطية والملك دون أن يفلح في تحقيق نصر حاسم عليهم، وتعاني البرجوازية المصرية من الاعتداءات المتتالية على الدستور، ومن الصراع الحزبي العقيم، ومن الفساد السياسي والاستبداد. وهذه هي المرحلة التالية التي يتعرض لها محفوظ في الجزء الثالث من الثلاثية وفي قصصه الواقعية الأخرى.

---

١. رمضان، تطور الحركة الوطنية...، ص ٦٠٦

٢. قصر الشوق، ص ٣٨٣.

٣. نفسه، ص ٤٦٤.

الطبقة الوسطى في مواجهة الفساد السياسي والاستبداد

يلخص كمال في بداية السكرية الوضع السياسي في مصر في منتصف الثلاثينات مستعرضا ما مرت به البلاد في السنين السابقة من تجارب سياسية قاسية ومريرة، جعلت الشعب يوقف المعركة ويكتفي بالصبر والسخرية،

. . . وكان كالآخرين قد امتلأ بمرارة التجارب السياسية التي خلفتها الأعوام السابقة. أجل "لقد عاصرت عهد محمد محمود الذي عطل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرية الشعب في نظير وعده له بتجفيف البرك والمستنقعات! كما عشت سنين الارهاب والمهر السياسي التي فرضها اسماعيل صدقي على البلاد. كان الشعب يثق في قوم ويريدهم حكاما له ولكنه يجد فوق رأسه دائما أولئك الجلادين البغضاء، تحميهم هراوات الكونستبلات الانجليز ورصاصهم، وسرعان ما يقولون له بلغة او بأخرى أنت شعب قاصر ونحن الأوصيا". والشعب يخوض المعارك دون توقف فيخرج من كل وهو يلهث، حتى اتخذ في النهاية موقفا سلبيا شعاره الصبر والسخرية، فخلا الميدان الا من الوفديين من ناحية والطغاة من ناحية أخرى، وقنع الشعب بمجلس المتفرج وراح يشجع رجاله في همس دون أن يمد لهم يدا"[١] . .

ويعلق أحمد وصحبه على ذلك الوضع ايضا في أحاديثهم،

ـ نحن في عام ١٩٣٥، ثماني سنوات مرت على موت سعد، وخمسة عشر عاما منذ الثورة، ولا يزال الانجليز في كل مكان، في الثكنات والبوليس والجيش وشتى الوزارات، الامتيازات الأجنبية التي تجعل من كل ابن لبوءة سيدا مهابا ما زالت قائمة، ينبغي أن تنتهي هذه الحال المؤسفة. .

---

١. السكرية، ص ٤٠.

ـ ولا تنسى الجلادين أمثال اسماعيل صدقي ومحمد محمود والأبراشي ! ١

كما يشيدون بموقف النحاس من عودة دستور ١٩٢٣ "... ما رأيكم في مصطفى النحاس؟! الرجل الذي لم تؤثر فيه دموع الملك الشيخ المريض فأبى أن ينسى ثانية واحدة مطلبه الأسمى "دستور سنة ١٩٢٣"[٢].. ويردد كل منهم هذه الحادثة بطريقته الخاصة، واضعين ثقتهم التي لا نهاية لها في النحاس وآملين في ذهاب الانكليز وانتهاء نفوذ الخواجات[٣].

ويشير محفوظ الى تصريح هور في ٩ نوفمبر ١٩٣٥ الذي رفض فيه أهم مطلبين لمصر: عقد المعاهدة وعودة الدستور[٤]. والى الحرب التي شنها الوفد على الانكليز بعد هذا التصريح الذي خيب أمله في أن تغير السياسة البريطانية موقفها من هذين المطلبين، وذلك في المؤتمر الذي عقد بمناسبة الاحتفال بعيد الجهاد الوطني في ١٣ نوفمبر ١٩٣٥[٥]. كما يشير الى المظاهرات التي قامت ردا على ذلك التصريح والتي استشهد فيها طلبة من الآداب والزراعة ودار العلوم. وكيف أن تلك المظاهرات آتت ثمارها، فتراجعت انكلترا، وقبلت المفاوضة[٦].

---

١. نفسه، ص ٥٠.

٢. نفسه، ص ٤٩.

٣. نفسه، ص ٤٩ ـ ٥١.

٤. راجع نص التصريح وأصداءه في رمضان، تطور الحركة الوطنية ...، ص ٧٨٢ ـ ٧٨٦.

٥. السكرية، ص ٣٩ ـ ٤٦ وفيها وصف للمؤتمر وللمظاهرة التي تبعته والتي أطلق خلالها الجنود الانكليز والمصريون الرصاص على المتظاهرين فقتلوا عددا كبيرا منهم، وذلك من خلال مشاعر كمال.

٦. بداية ونهاية، ص ٣٤ ـ ٣٥.

وأسفرت المفاوضة التي جرت بين وفد يمثل كافة الأحزاب المصرية وعلى رأسها الوفد وبين الانكليز عن عقد معاهدة ١٩٣٦ تحت ضغط حالة دولية خطيرة. وهي المعاهدة التي "أزالت التحفظات ومهدت الطريق لالغاء الامتيازات الاجنبية، وحددت مدة الاحتلال بعد قصره على منطقة معينة"[1] ولكن هذا الانتصار الهزيل لم يكن ليغطي على الفساد السياسي الذي لم يسلم الوفد نفسه منه. فالشعب لم يستطع أن يرى الشيطان (صدقي) ضمن هيئة المفاوضات في لباس الوطنيين الأحرار[2] ولم يكترث كثيرا للمعاهدة[3] وفضلا عن ذلك، فان هذا الانتصار لم يدم طويلا ، لأن الصراع الحزبي والشخصي ما لبث أن عاد يلوث الجو السياسي في البلاد. وعاد الملك والأرستقراطية يتآمرون على الوفد الذي توالت الانشقاقات عنه، وعاد الانكليز يتدخلون في شؤون البلاد. ويشير الكاتب في هذا المجال الى خروج النقراشي من وزارة الوفد وبالتالي من الوفد في سبتمبر ١٩٣٧، كما يشير الى اقالة النحاس في ديسمبر ١٩٣٧، التي اشترك في تدبيرها الملك والارستقراطية والخارجون على الوفد،

> ... فاروق ليس المسئول وحده، ولكن دبرها أعداء الشعب التقليديون، فهذه يد علي ماهر ومحمد محمود، ومن المبكي أن ينضم الى أعداء الشعب اثنان من أبنائه، ماهر والنقراشي، ولو تطهر الوطن من الخونة لما وجد الملك من يمكنه من هضم حقوق الشعب.[4]

---

١. السكرية، ص ٤٣.

٢. نفسه، ص ١١٥.

٣. نفسه، ص ٧١. حديث بين شلة من الموظفين يقابل خلاله ذكر أحدهم للمعاهدة بالنكتة.

٤. نفسه، ص ١٧٤–١٧٥.

كذلك يشير محفوظ الى انتخابات ابريل ١٩٣٨ المزورة التي لم يزد مجموع الناجحين فيها من الوفديين على ثلاثة عشر حتى أن النحاس نفسه ومكرم عبيد سقطا . ويعلق كمال على ذلك بقوله ،

ـ انتخابات مزورة،كل شخص في البلد يعلم بأنها مزورة ، و مع ذلك يعترف بها رسميا وتحكم بها البلاد ، ويعني هذا أن يستقر في ضمير الشعب أن نوابه لصوص سرقوا كراسيهم ، و أن سلطاته و حكومته مزيفة مزورة ، و أن السرقة و التزييف و التضليل مشروعة رسميا ، أفلا يعذر الرجل العادي اذا كفر بالمبادئ و الخلق و آمن بالزيف و الانتهازية؟ [١]

و يشير الى عودة النحاس الى الحكم في فبراير ١٩٤٢ بعد تدخل الانكليز ضد الملك و تقديمهم انذارهم المشهور ، و الى اختلاف الناس في أمر قبول النحاس الوزارة و اعتبار بعضهم أنه أخطأ و اعتبار البعض الآخر أنه أنقذ البلاد [٢] .

و يحظى تصوير الفساد السياسي بقدر كبير من اهتمام محفوظ في قصصه الأخرى و لا سيما في القاهرة الجديدة حيث نسمع محجوب يتحدث عن فساد النظام النيابي و سائر المؤسسات الحكومية ،

ـ النائب الذي ينفق مئات الجنيهات قبل أن ينتخب لا يمكن أن يمثل الشعب الفقير ، و البرلمان في ذلك شأنه شأن المؤسسات الأخرى . أنظر الى قصر العيني مثلا ، فبالاسم مستشفى الشعب الفقير ، و بالفعل حقل تجارب لاجراء اختبارات الموت على الفقراء . . . [٣]

---

١ . نفسه ، ص ١٨٤ـ ١٨٥ .

٢ . نفسه ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦ . احاديث كمال عبد الجواد و رياض قلدس .

٣ . القاهرة الجديدة ، ص ٤٦ .

و نسمع سالم الاخشيدي الخبير بشؤون فساد الدولة يتحدث متفلسفا عن مصر البلد المسلوب الذي يتولى مسئولياته الضعفاء الأغبياء[١]. كما يتحدث عن نفوذ الأوانس مثل المطربة الآنسة دولت " و منطقة نفوذها السكك الحديدية و وزارة الحربية و بعض الدوائر الكبرى" اللواتي يبعن المناصب و الوظائف لطلابها[٢]. وعن نجاح الشباب الشاذ في الحصول على أعلى الوظائف بسهولة[٣]. و يعلق محجوب على الوضع السياسي و الزيف "... اختيار الموظفين تزييف، رسو العطاءات تزييف، ألعاب البورصة تزييف، الألقاب و النياشين تزييف، الانتخابات نفسها تزييف ..."[٤]. و ليس أدل على التزييف من الحفلة التي أقامتها السيدة اكرام نيروز منشئة جمعية "الضريرات" المغرمة بالشهرة و الثناء و صاحبة النفوذ الواسع الذي يمتد الى وزارات كثيرة و أحزاب كثيرة[٥]، و التقرير الذي أعده محجوب عن تلك الحفلة قالبا الحقائق رأسا على عقب طلبا لرضى السيدة صاحبة الحفلة. يكتب محجوب أن اكرام نيروز من أسرة عريقة في الوطنية و أنها زوج وفية و أم بارة و أنها قد اغترفت من الثقافتين العربية و الفرنسية، و قامت بمشروعات خيرية مستجيبة و مدعويها لعاطفة الخير. أما الحقيقة فهي أنها كريمة رجل من صنائع الاحتلال، مغرمة بالشبان، متفوقة في الفرنسية وعاجزة في العربية، و قد حولت دار الضريرات الى حانة، و اهتمت و مدعويها بكل شيء الا الضريرات[٦]. و يلفت نظر محجوب في الحفلة "شخص غريب المنظر، ضخم الجسم في غير تناسق، مكرش، كأنه مادة حيوانية لم تسوّ بعد، يمشي منفرج الساقين كأنه ذو داء". بيد أنه بدا أثيرا

---

١. نفسه، ص ٣٢.

٢. نفسه، ص ٨٥ — ٨٦.

٣. نفسه، ص ٨٦. ويتحدث احمد بدير عن الموضوع ذاته ص ٩٧ — ٩٨.

٤. نفسه، ص ١٠٠.

٥. نفسه، ص ٨٦.

٦. نفسه، ص ١٠١.

محبوبا مكرما ، يحادث العظام بغير كلفة ، و يمازحهم و يعلو صوته بينهم بغير مبالاة" و يخبره أحمد بدير صديقه الصحفي أن ذلك الشخص المدعو عزوز ضارم "كان يوما موظفا محترما ،ثم اضطر الى الاستقالة لأسباب خلقية ، فاشتغل بالأعمال الحرة ، وعرفه أناس من ذوي النفوذ ، فأعيد الى الخدمة و سار قدما . . و لكنه لم يهجر أعماله الحرة !" و "عمله الحر شقته الأنيقة. فيها مائدة للقمار. و فيها الحسان الكواعب الحور!"[١]. و في ظل ذلك الوضع المهترئ" صار الغدر هو القاعدة فالموظفون "يقبلون على صاحب السلطان ما أقبلت الدنيا عليه ، فاذا أفل نجمه فأكرمهم من يدبر عنه دون أن ينشب فيه أظفاره . . ."[٢]

* و يصور محفوظ في زقاق المدق حقيقة العمل السياسي و الحزبي في مصر و ما طرأ عليه من فساد ،

> ــ السياسة حقيقة بأن تخرب بيتنا و تلتهم تجارتنا . ستجد نفسك ملزما بالانفاق على الحزب أضعاف ما تنفق على نفسك و أهلك و تجارتك. وعسى أن ترشح للبرلمان فتستغرق الانتخابات آلافا من أموالك دون جدوى ثمنا لكرسي غير مضمون، وهل البرلمان في بلادنا الا كرسي بالقلب تهدده السكتة في أية لحظة! ثم أي حزب تختار؟ اذا اخترت حزبا غير الوفد أضعفت مكانتك في الوسط الذي تعمل فيه ، و اذا اخترت الوفد لم تأمن رئيس وزارة كصدقي باشا يجعل تجارتك هشيما تذروه الرياح [٣].

و يعطي الكاتب صورة شبه كاريكاتورية لذلك العمل من خلال مهرجان انتخابي [٤] ، يشي مظهر المرشح غامة بأن بطنه أهم بكثير من رأسه " و قد أحدث ظهوره اهتماما كبيرا

---

١. نفسه ، ص ٩٦ ــ ٩٧.

٢. نفسه ، ص ١٢٥.

٣. زقاق المدق ، ص ٧١.

٤. نفسه ، ص ١٥٦ ــ ١٦٥.

في الزقاق و ما يحيط به ،لأنهم اعتبروه عروس الليلة ، و أملوا من وراء " زفته" خيرا كثيرا ، خصوصا و أنهم لم يفيقوا بعد من الصدمة التي دهمتهم في الانتخابات السابقة بفوز مرشح الدائرة بالتزكية." وبطانته جلها من رافعي الأثقال بنادي المدارس الرياضي ، و نراه يقدم مبلغا من المال للمعلم كرشة ليضمن صوته و أصوات من يلوذ به من المعلمين وعمالهم. و يدّعي أنه مرشح مستقل مع أنه ، في الحقيقة ، مرشح الحكومة. و يعد مستمعيه بالحلوان اذا فاز في الانتخابات. و يسأل الشيخ درويش أن يدعو له فيرد هذا بصوت منخفض "الله يخرب بيتك . . !" أما الحفلة التي أقامها مؤيدوه له فقد بدأت بالقرآن الكريم ، ثم النشيد الوطني ،فمونولوجست يغني و امرأة ترقص شبه عارية و هي تهتف المرة تلو المرة " السيد ابراهيم فرحات . . ألف مرة . . ألف مرة" " و جعل الرجل المشرف على المكبرات يصيح في المذياع. السيد ابراهيم فرحات أحسن نائب . . ميكروفون بهلول أحسن ميكروفون".

و تمثل حياة المعلم كرشه تطور الوضع السياسي في مصر بين عام ١٩١٩ والحرب العالمية الثانية "اشترك في ثورة سنة ١٩١٩ اشتراكا فعليا عنيفا ، و قد نسب اليه الحريق الكبير الذي التهم الشركة التجارية اليهودية للسجاير بميدان الحسين ، و كان من أبطال المعارك المنيفة التي دارت بين الثوار من ناحية و بين الأرمن واليهود من ناحية أخرى ، و لما أن خمدت الثورة الدموية وجد فيما جد من معارك انتخابية ميدانا جديدا على ضيقه لنشاطه و حماسته ، فبذل في انتخابات سنة ١٩٢٤ جهدا مشكورا و صمد ببطولة لمغريات انتخابات سنة ١٩٢٥ . ... وكان عام ١٩٣٦ آخر عهده بالسياسة. فطلقها بعد ذلك و تزوج التجارة ، و رصد الانتخابات فيما تلا ذلك من عهود كما يرصد الأسواق النافقة ، و انقلب نصيرا لمن "يدفع أكثر" و جعل يعتذر عن مروقه بما طرأ على الحياة السياسية من فساد ، قائلا : انه اذا كان المال غاية المتنابذين في ميدان الحكم فلا ضير أن يكون

كذلك غاية الناخبين المساكين! وفضلا عن هذا وذاك فقد لحقه الفساد هو نفسه، وغلبه الذهول، وركبته الشهوات، ولم يبق في روحه من الثورة القديمة الا ذكرى غامضة... ولم يعد يعبأ بشيء من بعد ذلك الا "الكيف" و"الهوى"... لم يعد يكره أحدا، لا اليهود ولا الأرمن ولا الانجليز أنفسهم، ولم يعد يحب أحدا كذلك..."[١]

وتؤكد أحداث السكرية أن الوفد نفسه لم يسلم من الفساد. فعبد الرحيم باشا عيسى الوزير الوفدي الذي يعلق صورة سعد يستقبل في بيته العديد من الشبان الشاذين، ويعينهم في مناصب كبيرة. وهكذا يسيطر اليأس على النفوس برغم حكم الوفد،

— ... من عادة النواب أن يثرثروا عند نظر الميزانية، ومن عادة الحكومة أن تعد بالنظر في تحقيق رغبات النواب في أقرب فرصة، ومن عادة هذه الفرصة ألا تقترب أبدا...

. . . .

— طول عمرهم يعدون باخراج الانجليز، وبفتح جامعة جديدة، وبتوسيع شارع الخليج، فهل تم شيء من هذا ...؟"[٢]

أما الاستبداد فصورته ماثلة أبدا، وهكذا نرى كمال — الذي "علمته الحياة السياسية في مصر أن يمقت الدكتاتور من صميم قلبه" — يشكو قرب نهاية السكرية من الأحكام العرفية وغياب القانون،

— يجب أن تعبد الحكومة أولا كي تعيش مطمئنا..
— على أي حال الاعتقال أخف في نظري من المحاكمة!

---

١. نفسه، ص ١٦٠ — ١٦١.

٢. السكرية، ص ٣٤١.

> ــ هذا رأي ، ولكن متى تنكشف الغمة؟ ،متى ترفع الأحكام العرفية؟ ، متى يعود السلطان الى القانون الطبيعي والدستور! ، متى يعامل المصريون كآدميين؟ ! ١

وكانت هذه الأوضاع أرضا خصبة لنمو ظاهرة الاغتراب السياسي الذي يعرّفه حليم بركات فيقول انه عدم رضى ورفض للأوضاع السياسية ونوع العلاقات القائمة بين المواطن والدولة. والانسان المغترب سياسيا لا يشعر أنه منسجم مع حكومته ويحس بهوة فسيحة تفصل بين الأوضاع السياسية الراهنة والأوضاع السياسية التي يتمناها ..."٢ ويظهر ذلك بوضوح عند كمال عبد الجواد الذي امتلأ حلقه بمرارة التجارب السياسية التي مرت بها مصر بعد اجهاض ثورة ١٩١٩ فصار يشعر بالغربة واللا انتماء لعجزه عن تغيير الواقع الذي يعرف بشاعته معرفة جيدة ، واختار الانسحاب حلا لاغترابه . ولكن تعلقه بحزب الوفد يخفف من اغترابه ، فنراه يحضر المؤتمر الوطني الذي عقده الوفد للرد على تصريح هور متغلبا ولو لفترة قصيرة على شكوكه ،

> ... ثم لاح مصطفى النحاس فوق المنصة وهو يحيي الألوف بابتسامة وضيئة ويدين قويتين . وتطلع اليه بعينين اختفت منهما نظرة الشك الى حين ، وكان يتساءل كيف أومن بهذا الرجل بعد أن فقدت الايمان بكل شيء؟ . ألأنه رمز الاستقلال والديمقراطية !؟ . مهما يكن من أمر فان التجاوب الحار المتبادل بين الرجل والشعب ظاهرة جديرة بالنظر ، وهي بلا شك قوة خطيرة تلعب دورها التاريخي في بناء القومية المصرية . ٣

---

١. نفسه ، ص ٣٦٢ .

٢ . بركات، "الاغتراب والثورة في الحياة العربية" ، ص ٢٥ .

٣. السكرية ، ص ٤٢ ــ ٤٣ .

"هكذا نجح اشتراكه في العيد الوطني في تجديد نفسه فلم يكن يهمه في تلك اللحظة الا أن تجيب مصر على تصريح هور اجابة حاسمة كاللكمة القاضية"[١] . و يظل خط سير أزمته النفسية موازيا لخط سير الوضع السياسي في مصر، فتتفاقم تلك الأزمة كلما تفاقم الفساد السياسي و الاستبداد و تخف كلما ظهرت بوارق أمل بتحسن الوضع و يظل يؤمن بحقوق الشعب بقلبه برغم شكه العقلي في كل شيء[٢] .

كذلك يجد رياض قلدس القبطي في الوفد ملاذا من اغترابه السياسي و اغترابه القومي الناشيء عن انتمائه الى دين الأقلية حيث أن الفصل بين القومية و بين الدين لم يكن تاما بعد فيما يبدو ــ لأن الوفد " حزب القومية التي تجعل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم و أديانهم". فلما أقيل مكرم عبيد مثل الأقباط من الوزارة الوفدية و من الوفد في يوليه ١٩٤٢ "شعر الأقباط بأنهم طردوا من الوفد ، وهم يتلمسون الأمان ، و أخشى الا يظفروا به أبدا"[٣] و يعلق رياض على ذلك ،

> . . . لقد جاءتني السياسة أخيرا بعقدة جديدة كعقدة الدين، فكما كنت أنبذ الدين بعقلي و أميل اليه بقلبي بصفته رابطة قومية فكذلك سأنبذ الوفد بقلبي و أميل اليه بعقلي ، اذا قلت اني وفدي كذبت قلبي و اذا قلت اني عدو للوفد خنت عقلي ،انها

---

١ . نفســـه ، ص ٤٤ .

٢ . يقول محفوظ في مقابلة اجريت معه ان كمال "ربما كان لا منتميا و لكنه لا منتمي من نوع خاص اذ انه نزع الى الانتماء بشكل واضح و انساني و ان يكن غير محدد المعالم" (شكري ، نجيب محفوظ يتحدث. . ." ، ص ٦٨) . و يعلل شكري ذلك بأن المرحلة الحضارية التي بلغها العالم العربي لا تسمح بظهور اللامنتمي العربي المماثل للا منتمي الغربي لأن الحصيلة الحضارية للمنتمي العربي خواء من أية مكاسب ديمقراطية (شكري ، المنتمي ، ص ١٥)

٣ . السكرية ، ص ٢٩٦ .

كارثة لم تخطر لي على بال ، والظاهر انه مقضي علينا نحـن
الاقباط بأن نعيش في شخصيات منقسمة أبدا ، لو كانت مجموعتنا
فردا واحد لجن ! ١

ولا يبدي أبطال محفوظ الآخرون اهتماما كبيرا بالسياسة، ويشغلون بمشكلاتهم الخاصة عن مشكلة الوطن،فيرضخون للأمر الواقع و يسعون لجني المكاسب من الانغماس في جو الفساد السائد أو يدعون الترفع عن السياسة،مع أنهم جميعا يعون المشكـلات السياسية التي تعاني منها مصر والمتمثلة في الاحتلال وتسلط الارستقراطية والفساد السياسي والاستبداد . ولكن الأوضاع التي أنتجت أولئك الأبطال المغتربـين سياسيا والذين اختاروا حلولا سلبية لاغترابهم ذاك ، كانت، في الوقت ذاته ،ممهدة لظهور نقيضها الذي سيتكفل بالقضاء عليها متمثلا في الحركات السياسية الجديدة التي أخذت تخلف حزب الوفد بعد أن عجز عن اتخاذ خط اكثر ثورية في الدفاع عن مصلحـة الشعب و مصلحة الطبقة الوسطى الصغيرة. وقد اختار أفراد هذه الحركات طريـق التمرد الثوري حلا لاغترابهم و لمشكلات بلدهم و ازدهرت حركاتهم في ظل ظروف الحرب العالمية الثانية الصعبة. وهذه هي المرحلة الأخيرة من كفاح الطبقة الوسطى المصرية التي يتعرض لها محفوظ.

التيارات السياسية الجديدة

أ ــ الاخوان المسلمــون

* يـرى صفران أن"الشباب الوطني المثقف المنتمي الى الطبقات الوسطى وجد في حركة الاخوان الوريث الرئيسي للقيادة الوطنية في وقت كان فيه الوفد يتعاون بشكل مذل مع قوى الاحتلال التي جعلت من استقلال مصر مظهرا كاذبا و مثيرا للسخريـة"،

---

١ . نفســـه

وان "الهيئة المسيرة للحركة ضمت أعدادا كبيرة من المهنيين ولا سيما المعلمين ، ومن المثقفين." وأنه "يمكن اعتبار الحركة ردة فعل عنيفة للاخفاق الأيديولوجي للقادة المثقفين من مختلف الميول ، وللاخفاق السياسي ـ الاجتماعي لنظام الحكم الليبرالي"[١].

ويرى عيساوي أن حركة الاخوان "تقدم جوابا يبدو مقنعا للشكلات الرئيسية التي تحير ليس فقط المصريين بل سائر سكان الشرق الأوسط أيضا ؛ مثل تحدي الاستعمار الأجنبي ، وعدم جدوى الصراع الحزبي حين لا تجسد الأحزاب أية برامج محددة بل تمكس فقط منافسات شخصية ، ومثل سيطرة الأجانب على النشاطات الاقتصادية ، والمشكلات المزعجة الناتجة عن تصادم الغرب مع الاسلام وعجز المؤسسات والهيئات الاسلامية التقليدية عن التصدي لها بنجاح ، وأخيرا وليس آخرا الحاجة الى تحريك القوة الكامنة للجماهير عن طريق اعطائها الأمل والمثال اللذين تفهمهما في عبارات مألوفة لديها مستمدة من الدين الاسلامي"[٢].

أما كريستينا هاريس فترى "أن تأسيس الحركة في عام ١٩٢٨ كان النتيجة الطبيعية ، ونكاد نقول التي لا بد منها ، للتاريخ المصري خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . . . ففي مظهرها الاسلامي ، كانت الحركة ثمرة ردة الفعل المغالية في المحافظة تجاه الغزو الغربي المسيحي لمصر منذ منتصف القرن التاسع

---

١ . Safran, Egypt in Search of Political Community, P. 202 and P. 243

ويلاحظ عيساوي أن نغمة الأدب المصري في أواخر الثلاثينات كانت متشائمة ورجعية واسلامية تبتعد عن أوروبا الى ماض مثالي وذلك بعكس أدب أوائل العشرينات الذي امتاز بنغمة واثقة وليبرالية غربية علمانية .

Issawi, Egypt: An Economic and Social Analysis, P. 185.

٢ . Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 269.

عشر. وفي مظهرها الوطني ، كانت نتيجة الحركة الوطنية في مصر منذ عام ١٨٧٩ وحتى عام ١٩٣٦ . وهكذا فان "التغريب" و"التحديث" التدريجيين للمجتمع المصري ، مقرونين بالسيطرة الأجنبية البغيضة . حددا أيديولوجية الحركة ، كما حددتها الأحوال الحياتية القاسية للجماهير المصرية المسلمة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية. كذلك فان الصراع الفكري المرافق في مصر القرن العشرين بين قوى المحافظة وقوى التحديث كان مركز نفوذها الخاص"[1].

ومهما يكن من أمر ظروف نشأة الحركة في عام ١٩٢٨ على يد مدرس حكومي وابن مصلح ساعات ـ عالم هو حسن البنا ، فان الواضح أن الحركة نمت بسرعة بعد عام ١٩٣٦ " ذلك أن توقيع المعاهدة المصرية الانكليزية في تلك السنة ، والصراع الذي قام بين الملك والوفد في السنوات التالية ، جعل عقول الناس مستعدة لتقبل حركات جديدة خارج نطاق السياسة البرلمانية الحزبية"[2]. وهكذا ، وقبل مرور سنوات عديدة ، ضمت الحركة في عضويتها عددا كبيرا من طلبة الأزهر ، والموظفين المدنيين وغيرهم من ذوي الرواتب ، بالاضافة الى بعض الضباط والعديد من الجنود فضلا عن عمال المدن والفلاحين. كما انضم اليها العديد من الخارجين من الوفد ومن جمعية الشبان المسلمين وجمعية مصر الفتاة[3]. واستفادت الحركة من ظروف الحرب العالمية الثانية وما رافقها من شقاء وعذاب في تعزيز نفسها والانتشار في كل أنحاء مصر[4].

---

١. Christina Phelps Harris, Nationalism and Evolution in Egypt - The Role of the Muslim Brotherhood (Stanford: Mouton and Co., 1964), P. 14

٢. Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 265.

٣. Harris, Nationalism and Evolution in Egypt, P. 158.

٤. Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 266.

وهكذا تبدو علاقة الطبقة الوسطى المصرية بالحركة واضحة. فمؤسس الحركة وجهازها القيادي ينتمون الى هذه الطبقة. كما أن عددا كبيرا من أعضائها كانوا من الطبقة الوسطى. ويتضح من الآراء الثلاثة السابقة أن الحركة قدمت برنامجا مقنعا من الناحية العاطفية على الأقل لحل المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي واجهتها هذه الطبقة، مثل مشكلة الاستعمار، والفساد السياسي، والضياع الفكري والاجتماعي الناتج عن التصادم مع الحضارة الغربية، والمشكلات الاقتصادية الناتجة عن سيطرة الأجانب على الاقتصاد المصري والتفاوت الشديد في مستوى المعيشة بين الأغنياء والفقراء. ويرد هذا البرنامج جميع العلل الى سبب واحد ويقترح حلا مطلقا لها. أما السبب فهو الابتعاد عن الاسلام، وأما الحل فهو العودة اليه وتطبيقه في كافة مجالات الحياة.

ويعبر مأمون رضوان في القاهرة الجديدة عن ايمان بهذه المبادئ "الدين، الاسلام بلسم لجميع آلامنا ..."[١] وهو يؤمن ايمانا راسخا كذلك بثلاثة أشياء: الله، والفضيلة وقضية الاسلام. ويعترف بقضية واحدة هي قضية الاسلام عامة والعروبة خاصة[٢]. ولكنه لم يكن قد اهتدى الى طريقة محددة لتطبيق ما يؤمن به " وقد تساءل مرة قائلا: ألا يمكن أن نبدأ كفاحنا الحقيقي في جمعية الشبان المسلمين؟ فنطهر الاسلام من غبار الوثنيات، ونرد اليه روحه الفتية، وننشر منها دعوة لا تلبث أن تشمل الشرق العربي جميعا ثم بلاد المسلمين؟"[٣] وهكذا تظهر في آرائه بذور دعوة الاخوان المسلمين وبعض من ملامحها قبل أن تتخذ شكلا محدد المعالم وطريقا واضحة بينة.

---

١. القاهرة الجديدة، ص ٤٥.

٢. نفسه، ص ١٤.

٣. نفسه، ص ٧٦.

أما عبد المنعم شوكت في السكرية فقد وجد الطريق في الالتحاق بجماعة الاخوان المسلمين التي كانت قد انتشرت واتخذت لنفسها مبادىء محددة " وآمن بكل قلبه على حد تعبير المرشد ـ بأنها دعوة سلفية و طريقة سنية و حقيقة صوفية و هيئة سياسية و جماعة رياضية و رابطة علمية ثقافية و شركة اقتصادية و فكرة اجتماعية "[١] . كما قام بنشاط محدد : أشرف على شعبة الجمالية و كان مستشارا قانونيا لها . وأسهم في تحرير مجلة الاخوان وألقى المواعظ أحيانا في المساجد الأهلية ، و جعل شقته ناديا لاخوانه ، و كان "شديد التحمس موفور الاستعداد كي يضع جميع ما يملك من جهد و مال وعقل في خدمة الدعوة"[٢]

وأهم المبادىء التي آمن بها و جماعته هي أن " تعاليم الاسلام و احكامه شاملة تنظيم شئون الناس في الدنيا والآخرة . . . فالاسلام عقيدة وعبادة ووطن و جنسية ودين ودولة وروحانية و مصحف و سيف . . . "[٣] وأن الايمان بالله هو خالق القوة وباعثها فهو أقوى قوة في العالم و هو فوق كل شيء " . . . فتحت أيدينا نحن المسلمين ذخيرة مدفونة يجب أن تستخرجها ، يجب أن يبعث الاسلام كما بعث أول مرة ، نحن مسلمون اسما فيجب أن نكون مسلمين فعلا ، لقد من الله علينا بكتابه فتجاهلناه فحقت الذلة علينا ، فلنعد الى الكتاب"[٤] . وأن الدعوة " ليست موجهة الى مصر وحدها ، ولكن الى كافة المسلمين في الأرض ، ولن يتحقق لها النجاح حتى تجمع مصر والأمم الاسلامية على هذه المبادىء القرآنية . . ."[٥]

---

١ . السكرية ، ص ٣٥١ .

٢ . نفسه ، ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

٣ . نفسه ، ص ٣٥١ .

٤ . نفسه ، ص ٩٩ .

٥ . نفسه ، ص ٣٥١ .

أما طريقة عملهم فتقوم على البدء بالدعوة والتبشير وتكوين الأنصار المجاهدين ، ثم تجيء مرحلة التنفيذ التي لن يغمدوا خلالها السلاح حتى يروا القرآن دستورا للمسلمين جميعا . وهم يوطنون النفس على جهاد طويل ، وينتظرون حتى تنتهي الحرب " وعندما يهتف الداعي في الوقت المناسب يهب الاخوان وكل مدرع بقرآنه وسلاحه . ." [١]

ب ـ التيار اليساري

يرى رمضان أن أقوى العوامل التي أعاقت نمو الحركة الاشتراكية في مصر في العشرينات وأضعفتها هو " وجود الوفد ، الذي كان حائطا منيعا في وجه أية حركة أخرى مهما كانت مبادئها ، وذلك لشدة التصاق الجماهير به والتفافها حوله" [٢] .
ففي يوم ٨ مايو عام ١٩٢٨ ألقت حكومة النحاس باشا القبض على واحد وعشرين من دعاة الشيوعية في مصر وكانوا جميعا من اليونانيين والايطاليين ثم نفتهم من البلاد . ومنذ ذلك الحين لم تقم محاولة تذكر لاعادة تأسيس الحزب الشيوعي المصري [٣] ، بعد أن انتهت المحاولات السابقة كلها الى الاخفاق [٤] . لأنه ، كما يقول لاكير ، لم يكن لبرنامج الحزب علاقة اطلاقا بحقائق مصر الاجتماعية . ولم يفهم مؤسسوه أساسي النجاح الرئيسيين وهما: أولا ، أن المثقفين هم منبع تأييد الحزب الرئيسي ، فراحوا يبحثون عن قيادات عمالية ، ثانيا ، أن الصراع من أجل التحرر الوطني كان الأهم في تلك المرحلة ، فراحوا يهتمون كليا بالصراع الطبقي [٥] .

---

١ . نفسه

٢ . رمضان ، تطور الحركة الوطنية . . ، ص ٥٦٠ .

٣ . يورد رمضان هذه المعلومات ص ٥٥٦ و ٥٥٨ وبعضها نقله عن
Marcel Colombe, L'Evolution de L'Egypte (Paris: G. P. Maison Neuve, 1951.)

٤ . راجع تفاصيل هذه المحاولات في رمضان ، ص ٥٠٨ ـ ٥٦٠ .

٥ . Walter Laqueur, Communism and Nationalism in the Middle East and North Africa (New York: Frederick A. Praeger, 1956), P. 37.

ولم تعد الحركة اليسارية الى النشاط الا في أثناء الحرب الثانية حين ضعفت شعبية الوفد ، وصار القائمون عليها أكثر تفهما لأوضاع مصر وكان أكثرهم من المصريين وليس من الأجانب كما في السابق . ويلاحظ لاكير[3] أن الجماعات اليسارية الجديدة التي برزت الى الوجود في أواخر سنوات الحرب كانت بداية جديدة لا علاقة لها بأية نشاطات حزبية سابقة لعام ١٩٤٠"[1] . وقد استفادت هذه الجماعات من ظروف الحرب، والمناخ السياسي المعادي للفاشية، واقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والاتحاد السوفياتي في عام ١٩٤٢ ، وانتشار النقمة بين المثقفين على الأوضاع السائدة ، في توسيع عضويتها بحيث ضمت اكثر من ألف عضو عند نهاية الحرب[2] . أما التكتيك الذي اتبعته هذه الجماعات فيعتمد ،كما يقول عيساوي ، على "بناء نواة صلبة من أهل الفكر والطبقة الوسطى الصغيرة وعمال المصانع، والتسلل ، في الوقت ذاته ،الى الأحزاب والمنظمات الأخرى ، وأخيرا ، عندما يتم تماسك قاعدتها ، تمتد الى الريف عاملة ، طوال الوقت، تحت ستار العدالة الاجتماعية ومقاومة الاستعمار". ويضيف أن أكثر قادتها نشاطا ونفوذا لا يزالون من المفكرين او من البرجوازية الصغيرة[3].

ويمثل علي طه في القاهرة الجديدة بدايات الاتجاه اليساري في مصر قبل أن ينتظم في حزب أو حركة سياسية . فهو يؤمن " بالعلم بدل الغيب، والمجتمع بدل الجنة، والاشتراكية بدل المنافسة . ."[4] ويؤمن بالتفسير المادي للحياة الذي

---

١ . نفســـه ، ص ٤١ .

٢ . نفســـه ، ص ٤٣ .

٣. Issawi, Egypt at Mid-Century, P. 270.

٤ . القاهرة الجديدة ، ص ٩ .

يقول "بأن الوجود مادة، وأن الحياة والروح تفاعلات مادية معقدة، وأن الشعور صفة ملازمة عديمة الأثر كصوت العجلة الذي يلازم دورانها دون أن يكون له أثر"[١]. ويؤمن كذلك بالمجتمع البشري والعلم الانساني، ويعتقد "أن للملحد ــ كما للمؤمن ــ مبادئ ومثلا اذا شاء وشاءت له ارادته، وأن الخير أعمق أصولا في الطبيعة البشرية من الدين فهو الذي خلق الدين قديما وليس الدين الذي أوجده كما كان يتوهم"[٢] كما نراه يتفق مع بعض زملائه على اصدار مجلة أسبوعية للدعوة الى الاصلاح الاجتماعي، تاركا شهادة الماجستير ومعرضا نفسه لخطر السجن ومعللا ذلك بقوله "لندع البحث للباحثين. ولنركز همنا فيما هو أجل، وليكن جهادنا كله لمصر وكيف تحول من أمة عبيد الى أمة من الأحرار"[٣]، وحالما بمجتمع "يمحو شرورا نراها في وضعنا الحالي ضربا من القضاء والقدر ..." مجتمع ليس بخال من الشر لانه "لا خير في مجتمع يخلو من نقص يحث على الكمال"[٤]. ولكنه لم يهتد الى العمل الحزبي المنظم يعمل بواسطته على تطبيق مبادئه ونشرها بحيث يسهل وضع ما يؤمن به موضع التنفيذ. فنراه لا يزال يؤمن بالحكومة والبرلمان برغم ما أصابهما من فساد. فالبرلمان، في رأيه، "بحيرة تلتقي فيها جداول متباينة المصادر، لا محيد عن أن تمتزج أمواهها، وينشأ عنها نبع جديد ..."[٥]. ونلاحظ التصادم الذي كان قائما بين الفكرة الاسلامية والفكرة اليسارية من المناقشات التي كانت تدور بين علي ومأمون رضوان. ففي حين يؤمن مأمون بالمبادئ التي أنشأها الله، يؤمن علي بالمجتمع ومبادئه المتطورة. ولكنهما كانا متفقين على

---

١. نفسه، ص ٢٢.

٢. نفسه، ص ٢٣.

٣. نفسه، ص ١٦٦ ــ ١٦٧.

٤. نفسه، ص ٢١٤.

٥. نفسه، ص ٤٦.

ضرورة المبادئ للانسان ، وعلى نقد المجتمع الذي عاشا فيه ، وان اختلفا في طريقة اصلاحه . وكان محجوب عبد الدائم الممثل للتيار الأقوى في القصة ذاتها يكفر بالمبادئ جميعها ويرى في عمل علي من أجل مبادئه وما ينطوي عليه ذلك من خطر ضربا من الجنون[1].

أما أحمد شوكت في السكرية فيمثل حركة أكثر تطورا وتنظيما . فنراه يحاضر ويحرر المنشورات ويوزعها ، ويعمل في مجلة "الانسان الجديد" اليسارية ، ويشترك في ترجمة الكتب القيمة عن الفلسفة الماركسية للخاصة من المثقفين ، وفي القاء المحاضرات الحماسية على العمال المجاهدين[2] . ورسالة الانسان الجديد هي تطوير المجتمع على أساس علمي[3] . ونسمع عدلي كريم صاحب المجلة واستاذ أحمد او أبوه الروحي ، كما يدعوه ، يحث أنصار حركته على تدارس الماركسية ، ويضيف "ولكن تذكروا أنها وان تكن ضرورة تاريخية الا أن حتميتها ليست من نوع حتمية الظاهرات الفلكية ، انها لا توجد الا بارادة البشر وجهادهم ، فواجبنا الأول ليس في أن نتفلسف كثيرا ولكن في أن نملأ وعي الطبقة الكادحة بمعنى الدور التاريخي الذي عليها أن تلعبه لانقاذ نفسها والعالم جميعا"[4] . وهكذا فهو يرى أن الطبقة العاملة هي التي ستقوم بالثورة "حين يحتلئ وعيها بالايمان الجديد ويمسي الشعب كله كتلة واحدة من الارادة"[5]

وترفض الحركة الأديان لأنها تنافي التطور والحرية ،

ــ بل قل ان بقاء عقيدة اكثر من ألف سنة آية لا على قوتها ،
ولكن على حطة بعض بني الانسان ، ذلك ضد معنى الحياة

---

١ . نفسه ، ص ١٦٨ .

٢ . السكرية ، ص ٣١٣ ، و ٣٥٢ .

٣ . نفسه ، ص ١٠٩ .

٤ . نفسه ، ص ٣٥٢ .

٥ . نفسه

> المتجددة ، ما يصلح لي وانا طفل يجب أن أغيره وانا رجل ، طالما كان الانسان عبدا للطبيعة والانسان ، وهو يقاوم عبودية الطبيعة بالعلم والاختراع كما يقاوم عبودية الانسان بالمذاهب التقدمية ، ما عدا ذلك فهو (أي الدين) نوع من الفرامل الضاغطة على عجلة الانسانية الحرة! ١

وهم لا يؤمنون باشتراكية الاسلام التي يدعو لها الاخوان ، ولا يؤمنون بتعاليمه ،

> ــ قد يكون في الاسلام اشتراكية ، ولكنها اشتراكية خيالية كالتي بشر بها توماس مورو ولويس بلان وسان سيمو ، انه يبحث عن حل للظلم الاجتماعي في ضمير الانسان بينا أن الحل موجود في تطور المجتمع نفسه ، انه لا ينظر الى طبقات المجتمع ولكن الى أفراده ، وليس فيه بطبيعة الحال أية فكرة عن الاشتراكية العلمية ، وفضلا عن هذا كله فتعاليم الاسلام تستند الى ميتافيزيقا اسطورية تلعب فيها الملائكة دورا خطيرا ، لا ينبغي أن نبحث عن حلول لمشكلات حاضرنا في الماضي البعيد . . . ٢

ولكنهم لا يشددون على رفض الدين مراعاة لمشاعر العامة وكي لا يستغل أعداؤهم ذلك ، فترمى حركتهم بالالحاد والكفر . يقول عدلي كريم :

> ــ ان مهمتنا الأولى أن نحارب روح القناعة والخمول والاستسلام ، أما الدين فلن يتأتى القضاء عليه الا في ظل الحكم الحر ، ولن يتحقق هذا الحكم الا بالانقلاب ، وعلى العموم فالفقر أقوى من الايمان ، ومن الحكمة دائما أن تخاطب الناس على قدر عقولهم . . . ٣

---

١ . نفســـه ، ص ١٦٠ .

٢ . نفســـه ، ص ٣١٠ .

٣ . نفســـه ، ص ٣٥٣ .

و هم يعتبرون الاخوان أعداءهم ، و لكنهم لا يخشونهم. فعدلي كريم لا ينكر أنهم عقبة خطيرة في طريق حركته ، و لكنه يضيف انهم ليسوا بالغي الخطورة ،

> . . . ألا ترى أنهم يخاطبون العقول بلغتنا فيقولون اشتراكية الاسلام؟ ، فحتى الرجعيون لم يجدوا بدا من استعمال اصطلاحاتنا ، و هم لو سبقونا الى الانقلاب فسوف يحققون بعض مبادئنا و لو تحقيقا جزئيا ، و لكنهم لن يوقفوا حركة الزمن المتقدمة الى هدفها المحتوم ، ثم ان نشر العلم كفيل بطردهم كما يطرد النور الخفافيش[١] .

و موقف الحركة من الوفد يتلخص في أنه "خطوة تطورية خطيرة و طبيعية في آن . . . فهو مبلور القومية المصرية و مطهرها من الشوائب و الخبائث، الى أنه مدرسة الوطنية و الديمقراطية ، و لكن المسألة أن الوطن لا يقنع و ما ينبغي له أن يقنع بهذه المدرسة ، لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة و لكنه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية و الاقتصادية و الانسانية"[٢] . كذلك هم يرون أن معنى الوطنية ينبغي أن يتطور حتى يغنى في معنى أشمل و أسمى[٣] . و هذه هي النقطة الثانية التي يتجاوزون فيها الوفد .

و تؤيد الحركة روسيا و تتمنى أن تنتصر في الحرب. كما تعادي النازية و الفاشية و مؤيديها في مصر مثل جمعية "مصر الفتاة"[٤] ،

> . . . أما مصر الفتاة فحركة فاشستية رجعية مجرمة ، ليست دون الرجعية الدينية خطرا ، و هي ليست الا صدى للعسكرية

---

١ . نفسه ، ص ٣٥٤ .

٢ . نفسه ، ص ١٠٧ .

٣ . نفسه ، ص ٣٨ .

٤ . قامت هذه الحركة في عام ١٩٣٣ بقيادة الاستاذ أحمد حسين .

الألمانية والايطالية التي تعبد القوة وتقوم على الاستبداد وتزري بالقيم الانسانية والكرامة البشرية. . .[١]

ولما كانت الحركة قائمة على اكتاف المثقفين الذين يوعون الطبقة العاملة لتقوم بالثورة. لذلك نراهم يهتمون بالأدب. فيرى عدلي كريم أن "الأدب وسيلة من وسائل التحرير الكبرى، ولكنه قد يكون وسيلة للرجعية . . . فمن الأزهر ودار العلوم خرجت آداب مرضية عملت اجيالا على تجميد العقل وقتل الروح" وعلى الأدباء أن ينالوا حظهم من العلم لأنه "أساس الحياة الحديثة" "والجاهل بالعلم ليس من سكان القرن العشرين ولو كان عبقريا" "فعلى كل مثقف أن يضيء نفسه بنوره وأن يعتنق مبادئه ومناهجه ويتحلى بأسلوبه" بحيث "يحل العلم محل الكهانة والدين في العالم القديم. . ."[٢] والكتابة الأدبية ينبغي أن تكون وسيلة محددة الهدف "وأن يكون هدفها الأخير تطوير هذا العالم والصعود بالانسان في سلم الرقي والتحرر" ولا يجوز التلهي والتفلسف عندما يكون المجتمع متألما، بل يجب تركيز الاهتمام على ازالة أسباب الألم. كذلك فان اقتصار الأديب على الوصف والتحليل عمل سلبي بالنسبة للمعركة الحقيقية. وفوق ذلك كله لا يكفي أن يكون الانسان الحر قارئا او كاتبا لأن المبادئ تتعلق بالارادة قبل كل شيء[٣].

ويشير محفوظ الى أن الحركة لم تكن واسعة الانتشار كحركة الاخوان، وأنها ضمت أفرادا مختلفي النحل والملل أكثرهم من البيئة الصحفية، وأنها كانت تحارب ويعتقل أعضاؤها. كما يشير الى تسرب كثير من النفعيين غير المخلصين اليها

---

١. نفسه، ص ١٠٨.

٢. نفسه، ص ١٠٨ — ١٠٩.

٣. نفسه، ص ٢٤٩ — ٢٥١.

" و من هؤلاء من يعمل بغية الأجر أو من يعمل للمصلحة الحزبية!" . و يرى عدلي كريم أنه من حق الحركة أن تستفيد منهم وعليها أن تحذرهم في الوقت نفسه [1] .

و يعبر أحمد راشد في خان الخليلي عن آراء مشابهة للآراء التي اعتنقها احمد شوكت مثل الايمان بالاشتراكية ، و وجوب اهتمام الأدب و الفكر بالمشكلات الاجتماعية ، و الدعوة الى التسلح بالعلم ، و الثقة بانتصار روسيا الاشتراكية في الحرب ، مما يدل على أنه لم يكن بعيدا عن الحركات اليسارية العاملة في مصر أثناء الحرب العالمية الثانية .

و مرة أخرى اصطدم التيار اليساري ممثلا بأحمد شوكت بالتيار الاسلامي الممثل بعبد المنعم شوكت بعد أن صار التياران أكثر تنظيما من ذي قبل في القاهرة الجديدة . و لكنهما اتفقا في الوقوف في وجه الحكم القائم و في الارادة و العمل و وضوح الهدف ، وانتهى مثلاهما في السجن معا . و يبدو أن كمال المعجب بالجيل الجديد و ايمانه ، قرر في نهاية الثلاثية أن يسير في طريق ذلك الجيل الواضحة و أن يخرج من الحيرة و السلبية الى الايمان و العمل . و يلاحظ أن كمال كان أقرب الى آراء أحمد منه الى آراء عبد المنعم و أن أقوال الأول هي التي اجتذبته في النهاية ، و جملته يتخلص من حيرته و شكه . و ربما كان حدس الكاتب و أمله أن التيار اليساري بمبادئه العامة ــ علم و اشتراكية و حرية ــ هو الذي سينتصر في مصر . و قد تحقق ذلك بالفعل بعد ثورة ١٩٥٢ التي قام بها ضباط ينتسبون الى الطبقة الوسطى الصغيرة ، و سارت في طريق الاشتراكية المعتدلة .

• • •

و بعد ، فقد تبين لي من استعراضي لمشكلات الطبقة الوسطى المصرية السياسية كما عالجها محفوظ في قصصه الواقعية أن الثلاثية عرضت مراحل كفاح هذه الطبقة بين نهاية الحرب العالمية الأولى و نهاية الحرب الثانية . و كان الكفاح في أول هذه المراحل موجها ضد الاحتلال البريطاني و جاءت ثورة ١٩١٩ تتويجا

---

١ . نفسه ، ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤

لذلك الكفاح . وفي المرحلة الثانية ،صار همّ الطبقة الوسطى أن تستولي على السلطة وأن تحتفظ بها في وجه منافسة الأرستقراطية والملك لها وتآمرهم عليها وعلى قيادتها الممثلة بالوفد وبسعد زغلول . وفي المرحلة الثالثة كانت الغلبة قد تمت لعناصر الارستقراطية وللملك ، وعم الفساد وخنقت الحريات، وتوالت الأزمات الاقتصادية . وقد عانت الطبقة الوسطى الصغيرة بنوع خاص في هذه المرحلة وحدث قدرتها على تحسين أحوالها والارتقاء اجتماعيا بل والمحافظة على مستواها وايجاد لقمة العيش الكريمة . وهذه المرحلة بالذات هي التي يركز عليها محفوظ في سائر قصصه وظروفها القاسية هي التي أنتجت أبطال قصصه الوصوليين الانتهازيين او اللامبالين الكافرين بكل القيم . أما المرحلة الأخيرة فتتمثل بقيام حركات سياسية جديدة يمينية ويسارية تسعى الى تغيير الأوضاع من الأساس وبناء دولة جديدة تحل مشكلات الطبقة الوسطى الصغيرة ومشكلات الشعب المصري عامة .

ويلاحظ أن محفوظ يعتمد الدقة والأمانة والتسلسل التاريخي الحقيقي في ايراده الوقائع التاريخية وأن ما يورده من هذه الوقائع لا يثقل على الناحية الفنية في القصص. كما أنه يعتمد الموضوعية في نقل الحقائق بحيث يكاد ينقل الآراء المتناقضة بالحماسة ذاتها تقريبا .

خـــاتمـــــة

تتلخص النتائج التي توصلنا اليها في هذه الدراسة بالأمــور التالية :

١ . ان اختيار محفوظ للشكل الواقعي في تلك المرحلة من تطوره الفني التي كانت ثمرتها القصص الست موضوع دراستنا (القاهرة الجديدة ، خان الخليلي ،زقاق المدق ، بداية ونهاية ، السراب ، والثلاثية) كان مرتبطا بالتطورات الاجتماعيـــة والاقتصادية والسياسية التي حدثت في مصر في العشرينات والثلاثينات من هـــذا القرن ، وبتأثير هذه التطورات على الطبقة الوسطى المصرية بالذات التي ينتســـب محفوظ اليها .

٢ . ان محفوظ يركز اهتمامه على معالجة مشكلات ثلاث فئات تنتمي الى الطبقة الوسطى الصغيرة والمتوسطة هي : التجار والموظفون والطلبة ، ويعطي هـــذه الفئات الأدوار الرئيسية في قصصه .

٣ . ان أهم المشكلات الاجتماعية التي عانت هذه الفئات منها تنبع مـــن العوائق القوية التي كانت تقف في وجه تقدمها الاجتماعي على السلم الطبقي ، وتجعل احتفاظها بمركزها على ذلك السلم أمرا صعبا أيضا . وكان الفساد السياســـي واستئثار طبقة واحدة بالسلطة ، والأزمات الاقتصادية في أساس هذه المشكلـــة ، مما يؤكد ارتباط الأنواع الثلاثة من المشكلات التي واجهت الطبقة الوسطى وتداخلها .

٤ . وكانت المشكلات الاجتماعية الأخرى التي عانت الطبقة الوسطى منها والناتجة عن مرورها في فترة انتقالية اهتزت القيم فيها نتيجة التصادم مع الغـــرب وبعض العوامل الأخرى ، تزيد من حدة المشكلة الأساسية ، وتؤدي الى اغـتراب المثقفين عن مجتمعهم .

٥ . كذلك كان الضعف الاقتصادي لهذه الطبقة يزيد من معاناة أبنائها ويدفع بهم الى حدود اليأس والكفر بالقيم وبالمجتمع.

٦ . كما ان المشكلات السياسية الناتجة عن خيبة الأمل الحادة التي أصابت هذه الطبقة بعد اخفاق ثورة ١٩١٩ ، وضعف الوفد وتسرب الفساد اليه ، واستمرار الاحتلال المقنع، واستبداد الارستقراطية والملك ، كانت مصدرا آخر من مصادر معاناة أبنائها .

٧ . كانت العوامل السابقة مجتمعة تؤدي بأبطال محفوظ الى اتباع طرق فردية ملتوية لتخطي تلك المشكلات. ولكن فئة من شخصيات تلك القصص بدأت تفيق من الصدمة، وتتخذ لنفسها خطا ثوريا ، وتبحث عن حل جذري لمشكلات المجتمع .

٨ . ان معالجة محفوظ لهذه المشكلات اتسمت بالموضوعية والنضج الفني والعمق. ولعل هذا ما يميزه عن سائر كتاب القصة العرب الذين أتوا قبله وما يعطي قصصه سمة انسانية برغم معالجتها مشكلات محلية. ويمكن اعتبار هذه القصص مصدرا هاما من مصادر التاريخ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لمصر الحديثة.

فهرس المحتويات

المصـــادر

١ . محفوظ، نجيب. القاهرة الجديدة. القاهرة: دار مصـر للطباعة، لا ت.

٢ . محفوظ، نجيب. خان الخليلي. الطبعة السادسة. القاهرة: دار مصـر للطباعة، لا ت.

٣ . محفوظ، نجيب. زقاق المدق. القاهرة: دار مصر للطباعة، لا ت.

٤ . محفوظ، نجيب. بداية ونهاية. القاهرة: دار مصر للطباعة، لا ت.

٥ . محفوظ، نجيب. السراب. الطبعة الرابعة. القاهرة: دار مصر للطباعة، ١٩٦٤.

٦ . محفوظ، نجيب. بين القصرين. القاهرة: دار مصر للطباعة، لا ت.

٧ . محفوظ، نجيب قصر الشوق. القاهرة: دار مصر للطباعة، لا ت.

٨ . محفوظ، نجيب. السكريـة. القاهرة: دار مصر للطباعة، لا ت.

المراجع العربيـــة

أ ــ الكتب

١ . بدر، عبد المحسن طه . تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠ ــ ١٩٣٨) . القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٣ .

٢ . البراوي ، راشد . حقيقة الانقلاب الأخير في مصر . القاهرة: مكتبة النهضـة المصرية ، ١٩٥٢ .

٣ . الرافعي ، عبد الرحمن . ثورة سنة ١٩١٩ . الجزء الأول . القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٦ .

٤ . رمضان ، عبد العظيم . تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة ١٩١٨ الى سنـة ١٩٣٦ . القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف و النشر ، ١٩٦٨ .

٥ . شكري ، غالي . أزمة الجنس في القصة العربية . بيروت: دار الآداب ، ١٩٦٢ .

٦ . شكري ، غالي . المنتمي ــ دراسة في أدب نجيب محفوظ . القاهرة: مكتبـة الزناري ، ١٩٦٤ .

٧ . النقاش ، رجاء . أدباء معاصرون . القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٨ .

ب ــ المجلات و الجرائد

٨ . أنيس ، محمد . "ثورة ١٩١٩ تحالف الطبقات بقيادة الرأسمالية الوطنية" . الكاتب ، اغسطس ، ١٩٦٥ .

٩ . انيس ، محمد . "مصر من الاقطاع الى الرأسمالية ١٧٩٨ ــ ١٨٨٢" ، الكاتب ، يوليو ، ١٩٦٥ .

١٠ . بركات ، حليم . "في علاقة القصة بالمجتمع" . آفاق ، خريف ١٩٥٨ .

١١ . بركات ، حليم . "الاغتراب و الثورة في الحياة العربية" . مواقف ، تموز ــ آب ، ١٩٦٩ .

١٢ . الجويلي ، كمال . "الادب و الفلسفة" . المساء ، ٢١ تشرين اول ، ١٩٦٢ .

١٣ . دوارة ، فؤاد . "رحلة الخمسين مع القراءة و الكتابة" . الكاتب ، يناير ، ١٩٦٣ .

١٤ . شكري ، غالي . "نجيب محفوظ يتحدث عن فنه الروائي" . حوار ، مارس ــ ابريل ، ١٩٦٣ .

١٥ . صالح ، احمد عباس. "رد على نجيب محفوظ" ، الكاتب، مارس، ١٩٦٦ .

١٦. صدقي ، جاذبية ، "لماذا لم يتزوج". صباح الخير، يناير، ١٩٥٨ .

١٧ . عبد الحي ، عبد التواب. "عصور حياتي". الاذاعة، ٢١ كانون اول ، ١٩٥٧ .

١٨ . عفيفي ، محمد . "نجيب محفوظ رجل الساعة". الهلال ، فبراير ، ١٩٧٠ .

١٩. كريم، سامح . "نجيب محفوظ و ثورة ١٩١٩" ، الكاتب، ابريل ، ١٩٦٩ .

٢٠ . محفوظ، نجيب. "ملاحظات على المشكلة الميتافيزيقية" ، الكاتب، مارس، ١٩٦٦ .

٢١ . موسى ، فاطمة. "نجيب محفوظ و تطور الرواية العربية" ، الكاتب، يوليو، ١٩٦٨ .

٢٢ . الورداني ، ابراهيم. "رحلة في رأس نجيب محفوظ". الجمهورية، ١٩ ابريل ، ١٩٦٠ .

٢٣ . ———— . "الواقعية تطور طبيعي للأدب". الاثنين، ١٩ كانون ثاني ، ١٩٥٩ .

المراجـــــع الأجنبيـــة

1. Ahmed, Jamal Mohammad. The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism. London: Oxford University Press, 1960.

2. Baer, Gabriel. "Social Change in Egypt: 1800-1914". Political and Social Change in Modern Egypt. Edited by P.M. Holt, London: Oxford University Press, 1968.

3. Barber, Elinor. The Bourgeoisie in 18th C. France. Princeton: Princeton University Press, 1955.

4. Berger, Morroe. Bureaucracy and Society in Modern Egypt. Princeton: Princeton University Press, 1957.

5. Berger, Morroe. "The Middle Class in the Arab Wold". The Middle East in Transition. Edited by Walter Laqueur. London: Routledge, 1958.

6. Bill, Valentine. The Forgotten Class - The Russian Bourgeoisie from the Earliest Beginnings to 1900. New York: Frederick A. Praeger Publishers, 1959.

7. Centers, Richard. The Psychology of Social Classes-A Study of Class Consciousness. Princeton: Princeton University Press, 1949

8. Grayson, Henry. The Crisis of the Middle Class. New York: Rinebart and Comp. Incorporation, 1955.

9. Gretton, R. H. The English Middle Class. London: G. Bell and Sons LTD, 1917.

10. Halpern, Manfred. The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa. Princeton: Princeton University Press, 1963.

11. Harris, Christina Phelps. Nationalism and Revolution in Egypt-The Role of the Muslim Brotherhood. Stanford: Mouton and Co., 1964.

12. House, Humphry. The Dickens World. 2nd Ed. London: Oxford University Press, 1960

13. Issawi, Charles. Egypt at Mid-Century-An Economic Survey. London: Oxford University Press, 1954.

14. Issawi, Charles. Egypt: An Economic and Social Analysis. London: Oxford University Press, 1947.